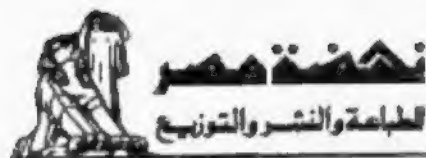


دَاعِيَ السَّمَاءِ

بلال بن رباح «مُؤَذِّنُ الرَّسُولِ»

عباس محمد العفاد





دَاعِيَ السَّمَاءِ

بِلَالُ بْنُ رَبَاحٍ
مُؤَذِّنُ الرَّسُولِ

عَبَّاسُ مَكَّةَ الْعَقَادِ



مَكَّةَ الْعَقَادِ
لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

Handwritten text, possibly a signature or date, located in the center of the page.

كلمة تصدير

بين الحرين العالميتين شاعت الدعوة العنصرية فبلغت أقصى مداها ، وعملت فيها السياسة غاية عملها . وأقحمها الدعاة من مباحث العلم والتاريخ في غير موضعها .

وقد كانت للإسلام كلمة في إنصاف العناصر والأجناس سابقة لكلمة الحضارة العنصرية والعلم الحديث ، وكان في صحابة النبي ﷺ رجل أسود هو بلال بن رباح مؤذنه الأول . فكان أثيراً عنده وعند الخلفاء وجلة الصحابة والتابعين . فالكتابة عن بلال رضي الله عنه في هذا العصر تقع من سلسلة العبقريات والسير الإسلامية في موقعها وتصادف موعدها من الزمن في أعقاب الحرب العالمية القائمة .

ولهذا كتبت هذه الصحائف في سيرة داعي السماء .

عباس محمود العقاد

سنة ١٩٤٥

مسألة العنصر

مسألة العنصر - أو الجنس - مسألة اجتماعية كثيرة الورد على ألسنة المعاصرين وأقلامهم . ولكنها على هذا من أقدم مسائل الاجتماع التي وجدت مع وجود القبائل الأولى .

وأكثر الباحثين في المسائل العنصرية من المختصين بها بين الغربيين يردون كلمة العنصر أو الجنس Race في لغتهم إلى أصل سامي يرجحون أنه هو اللغة العربية . ويعتقدون أنها مأخوذة من كلمة الرأس التي كانت تميز بين رءوس السلالات الآدمية وغير الآدمية .

ولم يكن اختلاف القبائل وتفاخرها شراً كله في بداية أمره ، ولا كان مدعاة للنزاع دون غيره . فمن علماء الاجتماع من يرجع بالوشائج الاجتماعية كلها والآداب الإنسانية برمتها إلى الواشجة الأولى التي نشأت في مبدأ الأمر مع نشوء القبيلة الممجية ، ثم كانت سبباً إلى التجاذب والتعارف بينها وبين القبائل الأخرى . ومصدق ذلك في القرآن الكريم حيث جاء من سورة الحجرات : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . . . » (آية ١٣) فكانت الواجبات التي تفرضها القبيلة على أبنائها أساساً لجميع الواجبات التي تعلمها الإنسان بعد ذلك ، سواء فرضتها عليه القبيلة أو الأمة أو الجامعة العنصرية أو الإنسانية بأسرها .

وقد طبع الناس على التفاخر بما يخصهم ولايم غيرهم كائناً ما كان معدنه ومدار الفخر فيه . فشاعت بينهم المفاخرة بالأنساب والأصول كما شاعت بينهم المفاخرة بمعالم الأرض التي يسكنونها وصنوف المطاعم التي يأكلونها ، وتفاضلوا بالحقائق كما تفاضلوا بالأساطير والأوهام .

فمن قديم الزمن يفخر كل عنصر بعراقته وامتيازته على غيره ، ويزيده

إمعاناً في عادة التفاخر والمباهاة أن تناح له فرصة الغلبة والاستعلاء فترة من الزمن . فإن كانت الغلبة قائمة حاضرة فهي آية الفخر وحجة المباهاة . وإن كانت غابرة دائرة فهي عنده علامة على عراقه أصله وحداثة غيره . وأنه أحق من ذلك الغير بالفخر والمباهاة وإن خدمته الحظوظ والمصادفات في حاضر أمره .

فلم تعرف أمة قديمة قط خلت من مفاخرة بعنصرها واعتداد بنسبتها وبيئتها وبلادها . والذي قال :

بلادى وإن جارت على عزيزة وأهلى وإن ضنوا على كرام
قد جمع هذه الحقيقة من جميع وجوهها وهو يدري أولاً يدري .
فليس من اللازم أن تكون البلاد أطيب البلاد ولا أن يكون الآل أكرم الناس ليفخر بهم الرجل الذى ينتمى إليهم وتحسب سمعتهم عليه وسمعته عليهم . فإنه ليعظمهم ويبجلهم فراراً من المهانة التى تصيبه إذا تقاصروا عن شأو العناصر الأخرى فى التعظيم والتبجيل . . . فهو فاخر بهم إن عظموا مساهمة منه فى فخارهم . وفاخر بهم إن هانوا دفعا للهوان عنه إذا اعترف بهوانهم . ولا حساب للبحث أو للرأى فى الحائتين إلا بعد حساب العاطفة والشعور .

كان المصرى القديم يؤمن بأنه هو الإنسان الكامل ثم تتلاحق الشعوب بعده إلى أن يأتى أبناء اليونان فى المرتبة السادسة .

وكان اليونانى القديم يؤمن بأنه هو الإنسان المهدب ومن عداه برابرة لا يدركون مكانه من الفهم والحضارة .

وكان العربى القديم يؤمن بأنه هو الإنسان المين الكريم ومن عداه « أعاجم » لا يفقهون ما يقال ولا يدينون بدين المروءة والأحساب .

وكذلك كان أبناء فارس والهند والصين . بل كذلك كانت كل قبيلة من تلك القبائل حين ينظر إلى نظائرها وإن تلاقت جميعا في أصل قريب من الأحساب والأنساب .

وبقيت هذه الشئشنة بين أمم الحضارة في العصر الحديث فاعترجها الأوروبيون على أبناء القارات الأخرى ، ولكنهم لبثوا فيما بينهم يفاخر كل شعب منهم جاره بالعادات والأخلاق والآثروا إن تقاربوا في السلالة واللغة والعقيدة فليس أشد تفاخراً بين الأوروبيين من الطليان والإسبان والفرنسيين وهم يرجعون بلغتهم إلى اللاتينية وبعقيدتهم إلى المسيحية الرومانية وبعناصرهم إلى مزيج متقارب من السلالات ، ولكنهم تعلموا - بوحى المصلحة المتفقة - أن يجمعوا فخرهم كله إلى فخر واحد يتقارب فيه الأوروبيون كافة . وهو « اللون الأبيض » أو الانتماء إلى القارة المحتلة بين القارات . وجعلوا هذا اللون الأبيض رسالة يبشر بها الأوروبيون من عداهم من الشعوب الإنسانية ، وسموا تلك الرسالة « عبء الرجل الأبيض » أو أمانة الرجل الأبيض . أو تبعته أمام الله لهداية خلقه الذين لم يبلغوا مبلغهم من العلم والارتقاء .

وصدق العالم الإنجليزي جوليان هكسلي حين قال إن هؤلاء الدعاة مسبقون إلى دعواهم قبل ميلاد السيد المسيح . فقد سبقهم « أشعياء » من أنبياء إسرائيل فقال في إصحاحه التاسع والأربعين : « اسمعى لى أيتها الجزائر واصغوا أيها الأمم من بعيد . الرب من البطن دعانى ، من أحشاء أمى ذكر اسمى . وجعل فى كيسيف حاد . فى ظل يده خبأتى وجعلنى سهماً مبرياً . فى كنانته أخفانى . وقال لى أنت عبدى إسرائيل الذى به

أتمجد. أما أنا فقلت عبثاً تعبت ، باطلاً وفارغاً أفنيت قدرتي . لكن
حقى عند الرب وعملى عند إلهى .
« والآن قال الرب جابلى من البطن عبداً له لإرجاع يعقوب إليه
فينضم إليه إسرائيل . فأنمجد فى عيني الرب وإلهى يصير قوتى . فقال :
قليلٌ أن تكون لى عبد الإقامة أسباط يعقوب ورد محفوظى إسرائيل ،
فقد جعلتك نوراً للأمم لتكون خلاصى إلى أقصى الأرض . هكذا قال
الرب فادى إسرائيل . . . »

فرسالة الرجل الأبيض التى تمخض عنها القرن التاسع عشر كله لم
تذهب بأصحابها إلى أبعد من هذا المدى الذى سبقهم إليه بنو إسرائيل
قبل ميلاد السيد المسيح بسبعة قرون .

• • •

وظلت المفاخر العنصرية كلها من قبيل هذه العادات الاجتماعية التى
لا يرجع فيها إلى قياس منطقى ولا موازنة علمية . فكانت أشبه شىء
بمفاخرات الصبيان بعضهم لبعض بآبائهم وأمهاتهم وأخواتهم وجيرانهم
وبيوتهم التى يسكنونها ومدنهم التى ينشأون فيها وكل شىء يتصل بهم
وتتعدد فيه المقابلة بينهم وبين غيرهم . وفحوى مفاخر الأجناس من هذا
القبيل أن كل جنس هو أفضل الأجناس لغير سبب . وليس هذا من
القياس المنطقى ولا الموازنة العلمية فى شىء .

ثم اتسع نطاق البحث العلمى فى القرن التاسع عشر فأدخل الفوارق
بين الشعوب فى موضوعاته الكثيرة وجعل لها علماً خاصاً أو باباً خاصاً
من أبواب المعرفة يسمى معرفة الأجناس البشرية .

وانتهى به البحث إلى وجود الفوارق الصحيحة بين خمسة من

الأجناس التي ينتمى إليها شعوب البشر كافة . وهي الجنس القفقاسى أو الأبيض . والجنس الرغى أو الأسود . والجنس المغولى أو الأصفر . والجنس الأسمر أو أهل الملايا . والجنس الأحمر أو سكان القارة الأمريكية الأصلاء .

واختصر بعضهم هذا التقسيم إلى ثلاثة أقسام فجعل الأجناس الصفراء والسمراء والحمراء فروعاً من أصل واحد . وهو اختصار له سند معقول .

وقد عني أصحاب هذه التقاسيم بالفروق التي تورث وتنتقل مع الأجيال . أى بالفروق التي يسمونها فروقاً بيولوجية دون غيرها من الفروق الاجتماعية التي تكسب بالقدوة والمحاكاة .

وتناول العالم اللغوى الألمانى ماكس مولر دراسة الأجناس من الناحية التي تعنيه وهي ناحية المقابلة بين اللغات . فاستخدم كلمة اللغات الآرية وأحبها من جديد بعد أن سبقه إلى استخدامها السير وليام جونز في أواخر القرن الثامن عشر . وقرر أن لهجات اللغة الهندية الفارسية نشأت من مهد واحد في أواسط آسيا التي كان الأفديمون يعرفونها باسم « أريانا » وأنها كانت في نشأتها الأولى لغة قبيل واحد من الأجناس البشرية . وكلا القولين اليوم خطأ عند علماء هذه المباحث فيما أثبتته جوليان هكسلى من كلامه عن الجنس في القارة الأوربية .

وأحس العالم الألمانى الكبير أن دعوة الجنس الآرى ستخرج من حيز التفكير العلمى إلى ميدان الصراع على الشهوات السياسية فحذر قراءه من الخطأ في تفسير كلامه وعاد إلى التحذير من ذلك في شيخوخته حيث قال : « لقد ناديت مرة بعد مرة أننى إذا ذكرت الآرية فلست أعنى

الدم ولا العظم ولا الشعر ولا الجمجمة . وإنما أرمى إلى قصد واحد وهو أولئك الذين يتكلمون باللغة الآرية . . ومتى تكلمت عنهم فلست أتبع في ذلك الخصائص التشريحية ، ولا أعنى أن أبناء السكنديناف ذوى العيون الزرق والشعر الأصفر قد كانوا قاهرين أو كانوا مقهورين . ولا أنهم قد اتخذوا لغة السادة السمر الذين تغلبوا عليهم أو كان الأمر على نقيض ذلك . . وعندى أن عالم الأجناس الذى يتكلم عن العنصر الآرى والدم الآرى والعيون الآرية والشعر الآرى إنما هو فى خطيئته العلمية كاللغوى الذى يتكلم عن معجم مستطيل الرأس أو أجرومية مستديرته على حد سواء .

وكان القرن التاسع عشر قرن « مذهب النشوء » كما كان قرن المذاهب العلمية والفلسفية من شتى نواحيها ، فما زالت الأقوال فى مذهب النشوء تتسع وتنشعب حتى عرض لبعض الباحثين فيه أن الأجناس البشرية تنتمى إلى أصول متفرقة لا إلى أصل واحد أو شجرة واحدة ، وأن القردة العليا هى أجناس بشرية سفلى ، وأن المغولى والقرد المعروف بالأورانج نبتا من أصل واحد . وأن الزنجى والغوريلا والشمبانزى تنتمى إلى أصل آخر . وكان رأس القائلين بهذا رأى عالماً ألمانياً من علماء الأجناس هو الدكتور هرمان كلاتش Klaatsch أستاذ هذا العلم بجامعة برسلاو الألمانية . فأعلن فى أوائل القرن العشرين رأيه هذا وأيده بما بدا له من الشواهد والملاحظات التى كشفت عنهما مقابلاته بين أنواع القردة وأنواع الإنسان .

لكن القرن التاسع عشر لم يكن قرن المباحث العلمية ولا قرن النشوء والتطور دون غيرهما . بل كان كذلك قرن التوسع فى الاستعمار وتسخير

العلم لخدمة المطامع الاستعمارية والمنازعات السياسية . . . فظهر من الكتاب من يبشر بالجامعة اللونية أو العصبية الجنسية على أساس اللون والعنصر ، وقام في أوروبا من يبشر بامتياز أجناس الشمال على سائر الأجناس البشرية ومن يرد الفضل في كل فتح من فتوح العلم والثقافة والحضارة إلى أصل الجنس الآري المزعوم في الشمال ، وأشهر من اشتهر بهذه الدعوة « ارثردي جوينو » في فرنسا وهوستون شميرلين الإنجليزي المتجر من في ألمانيا . ولم تخل أمريكا من نصيبها من هؤلاء الدعاة وهي ميدان نزاع بين الأجناس البيضاء والحمراء والسوداء وميدان مفاخرة بين المهاجرين الأوربيين الذين يمتون بالنسب إلى أصول مختلفة . كالسكسون واللاتين وأم الشمال والجنوب . فكان لوثرود ستودارد Lothrop

Stoddard وماديسون جرانت Madison Grant على رأس المبشرين بهذه العقيدة في الولايات المتحدة . ولم تكن كراهة الأجناس الملونة هي الباعث الوحيد في نفوس هؤلاء إلى التبشير بمزايا الرجل الأبيض أو مزايا الجنس الآري خاصة من بين الشعوب البيضاء . وإنما كانت كراهتهم للحكومة الحرة - أو حكومة المساواة بين الطبقات - باعثاً آخر إلى إنكار صفاء الشعوب التي سمحت بهذه الحكومة الحرة واتهامها بالنكسة والفساد من جراء امتزاجها بأجناس غير الجنس الآري أو الجنس الشمالى المجيد . فكانت هذه النكسة مدرجة لها إلى التزول عن أوج السيادة والإذعان لشريعة المساواة .

ولاشك أن حروب نابليون بونابرت كانت لها بدقوية في تمكين هذه التزعة بين الأمم الجرمانية خاصة ، لأنها كانت سلاحها الذى تدرأ العار به عن فخارها القومى في مجال الصراع بينها وبين اللاتين أو بين أم الشمال

وأهم الجنوب . وقد كان نابليون قائد فرنسا اللاتينية في صراعها مع
الجرمان منحدرًا من جنوب الجنوب بالقياس إلى القارة الأوربية .
فكانت صيحة الفخار القومي التي تستثار بها الأمم الجرمانية إلى الوحدة
هى تعظيم مزايا الجنس الشمالى الذى ينتمون إليه ، واتفق ذلك فى عصر
البحث عن الأجناس وعصر النشوء والتطور وعصر السباق إلى الاستعمار
وعصر الديمقراطية التى تخلف فيها الجرمان عن جيرانهم ، فكانت صيحة
التفوق العنصرى على أشدها بين الألمان ، وكادت عقيدة الجنس الآرى
أن تنحصر فيهم بعد مولدها فى بلاد الإنجليز على لسان واحد منهم وهو
العلامة ماكس مولر الذى سبقت الإشارة إليه ، ومن ثم ندرت دعوة إلى
التفوق العنصرى لم تكن لها صلة بالثقافة الألمانية الحديثة من قريب أو
بعيد .

• • •

وقد تعددت الأسباب التى ألهمت ساسة الألمان بعد الحرب العالمية
الماضية (١٩١٤ - ١٩١٨) بمسألة العنصر ودعوى الآرية أو الأقوام
الشمالية وما لها من الرجحان على خلائق الله كافة من أوربيين وغير
أوربيين ، سواء فى الزمن القديم أو فى الزمن الحديث .
فقد احتاج الساسة الألمان إلى محاربة المذهب الشيوعى فوضعوا بإزائه
مذهب الاشتراكية « الوطنية » وهى تعتصم بالخصائص القومية فى وجه
الدعوة الدولية التى يبثها الشيوعيون ، وفاقا لعقيدتهم المعروفة ، وهى
عقيدة الثورة على الأوطان والأديان .
ووافقتهم الخصائص القومية فى حريهم للشيوعيين من وجه آخر غير
المقابلة بين المذهبين . وذاك هو المقابلة بين عنصر السلافيين وعنصر

التيوتون الذى ينتمى إليه الألمان . فكانوا يقولون إنهم هم حماة الحضارة الأوربية من زخوف البرابرة التى تهددها من قبل آسيا فى الزمن الحديث . واستغلوا دعوة العنصر الآرى استغلالاً غير هذا وذلك فى محاربة اليهود باسم الساميين .

واستغلوها مع هذا وذلك لاستنهاض نخوة الأمم الجرمانية بعد هزيمتها المنكرة فى مبادىن القتال ، فنفخوا فى أوداجها أنها أهل للظفر - وليست بأهل للهزيمة - لأنها خلقت للسيادة وتزهت فى سلاتها الآرية عن شوائب الأجناس ، وأدخلوا فى روعها أنها كانت وشيكة أن تظفر بأعدائها لولا خيانة العمال من قبل الشيوعية ، وخيانة اليهود من قبل الشيوعية تارة ومن قبل أصحاب الأموال تارة أخرى .

فأصبحت دعوة العنصر هوساً جامعاً كهوس التعصب فى كل عقيدة من العقائد الشعورية ، وبلغ من التهوس بالدم الآرى المزعوم أنهم جعلوه فلسفة فى الحكم وفلسفة فى الأخلاق والفنون والآداب ، فكانوا يقولون إن الحكومة بنية حية تنبت من الدم القومى كما تنبت الجوارح فى الأجسام ، وأن الزعيم تركيب داخل فى تلك البنية بتقدير من طبيعة الكون أو طبيعة الخلاق العظيم ، وكان هتلر ينادى فى كتابه « إنا معشر الآرين لانعرف الحكومة إلا كبنية ذات حياة يتلبس بها الشعب من الشعوب » فهى شىء لا يدخل فى الإرادة ولا فى التربية السياسية ولا فى نظم التشريع والانتخاب .

وتطوح الغلو بدعاة هذه العنصرية حتى بلغوا بها - مع تلك البواعث النفسية والسياسية - مبلغاً لم يسبقهم إليه سابق فى عالم البحث ولا فى عالم الخيال . فجعلوا أجناس البشر فصائل تتعاقب طبقة تحت طبقة حتى

تلتقى بالقردة ولا يبعد أن تناسلها . وجعلوا أنفسهم نخبة مختارة بين فصائل الآرية جمعاء ترتقى إلى الذروة العليا في ذلك الترتيب ، وعادوا إلى كل رجل من أصحاب القرائح الخلاقة بين عظماء الأمم فألحقوه بالآريين على وجه من الوجوه ، وعادوا إلى كل اختراع من مبتكرات الصناعة وأدوات الحضارة فنسبوه إلى شعبة آرية مقيمة في موطنها أو مهاجرة إلى وطن من الأوطان ، فحصروا الخلق والسيادة في الآرية المزعومة دون غيرها وجعلوا العناصر الأخرى جميعاً عالة على الآريين ينتفعون بما يخلقون ويدينون لسيادتهم طائعين أو كارهين .

ولعل هذا الغلو من جانب دعاة العنصرية قد جنح بنقاد هذا المذهب إلى الغلو في إنكار خصائص الأقوام والأجناس ، وهم إذا غلوا في هذا الطرف كان لهم شفيع من الحجج والشكوك أدنى إلى الإقناع من شفيع العنصريين .

وانما نعرض للبواعث السياسية التي امتزجت بالحقائق العلمية في مسألة الجنس والعنصر لأن الإلمام بهذه البواعث يعين على تجريد الحقائق العلمية من أخلاطها الغربية ويرجع بها كرة أخرى إلى حيز الدراسة الفكرية والبحث المعقول .

ومن الواجب أن نصفى أولاً إلى دواعي التشكيك في تلك الدعوة الجازمة وهي كثيرة . فإنها على التحقيق تدعو إلى الشك في دعوة العنصريين وتبطل اليقين بكل عقيدة من تلك العقائد التي خيل إليهم أنهم يؤمنون بها . لأنهم يشعرون بالحاجة إلى ذلك الإيمان .

فن دواعي الشك في العنصرية الآرية أن العنصر الآري المزعوم لم يكن له وجود قط كأنه سلالة من السلالات الوراثية على النحو الذي

تخليوه ، وإنما كان جامعة لغوية يشترك فيها أقوام مختلفون لا يتأتى ردهم اليوم إلى سنخ واحد ، ولا يتشابهون في الخصائص العنصرية إلا كما يتشابه الأقوام الذين يتكلمون اليوم بلغة واحدة على تباين المواطن والألوان .

قال العالم الإنجليزى جوليان هكسلى فى كلامه عن العنصر أو الجنس بالقارة الأوربية : إن دعاة العنصرية يتكلمون عن الجرمان والآرين وأقوام الشمال « أو النورديين » كأنهم سلالة واحدة ، وهذا خلط لا مسوغ له من الحقائق . وإنما المقطوع به أن هناك نموذجاً بشرياً يعرف بالنموذج الشمالى موزعاً بين الأقطار الشمالية فى أوربا من الجزر البريطانية إلى التخوم الروسية . وإن هذا النموذج وهو على أقرب ما يكون إلى النقاوة والصفاء فى بعض الأقاليم السكندنافية لم ينسب إليه قط فتح من فتوح الحضارة أو كشف من كشوف العلم أو أداة من أدوات الاختراع التى اشتهرت فى التاريخ . وقد روجعت مخلفات العصر الحجرى التى ترد الى ما قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة فى بريطانيا العظمى فإذا هى تمثل ثقافة من ثقافات البحر الأبيض المتوسط حملها ذووها إلى شبه الجزيرة الايبيرية - التى نعرفها باسم الأندلس - ثم إلى فرنسا فالجزر البريطانية .

ومن المحقق أن الخطوات الأولى التى خطاها الإنسان إلى الحضارة حين تعلم الحرث والكتابة وبناء المنازل ونقل الأحمال على الدواب قد تقدم بها فى جوار البحر الأبيض حيث تقيم الأمم السمرات التى لم تنسب إلى السلالة النوردية . ومن المحقق كذلك أن مشاهير الجرمان أمثال جيتى وبتوفن وكانت كانوا مستديرى الرؤوس ربعة فى القوام ، وليس نابليون ولا شكسبير ولا أنيشتين ولا غاليليو وعشرات من أمثالهم على الصفة التى يزعمونها للنورديين ، ومن طرائف المصادفات أن اللون الأشقر والقوام

الطويل الرشيق لا يعرفان لزعم من زعماء الدعوة النوردية أو الاربية المزعومة . فهتلر أسمر وجورنج سمين بادن وجوبلز قصير دميم وزعماء « الجنكر » من سكان ألمانيا الشرقية تختلط فيهم ملامح السلافين والتوتون . وهم أكبر الدعاة إلى السيادة الجرمانية على الأمم قاطبة .

ويتفق علماء الأجناس ووصف الإنسان على توزيع السلالات في العنصر الواحد كما يتفقون على ندرة النقاوة المحض في عنصر أو سلالة . فالجنس الأبيض في القارة الأوربية وما جاورها ينضوى إلى عنوان واحد ولكنه ينقسم إلى السلالات النوردية والألبية وسلالة البحر الأبيض المتوسط ، وهذه السلالة الأخيرة تنضوى إلى عنوان واحد ولكنها تنقسم إلى ليين وإيبيرين وليجورين نسبة إلى اسم جبال الألب ما بين البحر وسافونا السفلى ، وقد يضاف إليهم البيلاسجيون Belasgian الذين ينزلون وحدهم في بحر « إيجه » على مقربة من اليونان .

والجنس الأسود ، على كونه من العناصر المتميزة بين أجناس البشر . يختلف في بعض الصفات وإن تماثل في اللون أو تقارب فيه . فقد عرفت القبائل السوداء في أستراليا ولكنها تخالف القبائل الأفريقية في الخصائص الوراثية . بل يقع الخلاف في بعض الملامح والأخلاق بين السود المتجاورين من أبناء القارة الأفريقية . أو أبناء الإقليم الواحد منها فالبوشمان والهوتنتوت كلاهما من سود أفريقية ولكن الأولين قصار وثابون مولعون بالصيد والقتال والآخرين طوال يرعون الماشية ويميلون إلى الاستقرار . ويجاورهم السود من أبناء قبائل البانتو الذين يعمرن السودان الجنوبي وبعض أقاليم الصحراء إلى الشواطئ الغربية ، وهم جماعات

شئى بين رعاة رحل مقاتلين وزراع مقيمين موادعين . وليست فوارقهم فى اللغات بأقل من فوارقهم الكثيرة فى الملامح والسمات والعادات .

° ° °

وبعض هذه الشواهد المتواترة يقرر لنا أن السلالات البشرية لا تبقى على وحدتها وانفرادها مع تعاقب الأجيال واختلاف مطارح الهجرة والانتقال . ولكنها تتوزع وتتفرع وينتشر التوزيع والتفرع فى خصائصها ومزاياها . وليس أدعى من ذلك إلى التشكيك فى مزاعم العنصريين الذين يحصرون مزايا البشر العليا جميعا فى سلالة واحدة تنفرد بها وحدها بين سائر السلالات .

ومن دواعى الشك القوية فى مزاعم العنصريين أن كثيرا من المزايا التى يصفون بها سلالة من السلالات يسهل الرجوع بها إلى عواملها المحلية أو الاجتماعية التى لا تحسب من العوامل الوراثية الحيوية . ونعنى بها ما يعرف بالعوامل البيولوجية .

فقد زعموا - مثلا - للسلالات الأوروبية أنها انفردت بحب المعرفة النظرية وملكة البحث عن حقائق الأشياء وهـ التفلسف المجرد الذى لا يرمى إلى المنفعة القريبة سواء منها ما ينتفع به الأفراد أو ما تنتفع به الجماعات . وقالوا أن الشعوب الشرقية لا تحب المعرفة هذا الحب ولا تتجرد للمباحث الفلسفية هذا التجرد . ولكنها تعنى بالعلم لتطبيقه فى الصناعات ومرافق العيش ومطالب الحياة العملية . ودليلهم على ما يزعمون ذلك الفارق الظاهر بين ثقافة اليونان وثقافة المصريين .

وحقيقة الأمر أن البحث عن أسرار الغيب وقوانين الوجود يدخل فى سلطان الكهانات القوية وأن هذه الكهانات القوية ترسخ وتتوطد وتبسط

يديها على العقول إلى جانب الدول العظيمة التي لا بد من قيامها في أودية الأنهار الكبيرة . فحيثما وجد نهر كبير في صقع من الأصقاع لم يكن هنالك بد من قيام دولة عظيمة على شطيه تسوس الرى والزراع وتنصون الأمن وتضمن سلامة المعاملات ، ومتى قامت هذه الدولة العظيمة لم يكن لها بد من الاعتماد على دعائم الدين وسلطان الكهانة والتفرد بحق البحث في العقائد والسيطرة على عالم الروح والضمير . وكثيراً ما تجتمع الوظائفان في شخص واحد كما اتفق لبعض الملوك الأرباب أو « أنصاف الأرباب » في التاريخ القديم . فإذا أصبحت المباحث الغيبية والمعارف التي تتناول أصول الوجود حقاً للكهانة تحميه الدولة فليس من المعقول أن تتسع الحرية للناس يشتون فيها وينكرون كما تتسع لهم في غيبة الكهانة القوية والدولة العريقة ، ولا مناص من اختلاف مقاصد التفكير جيلاً بعد جيل بين الأمتين حتى يلوح للنظر العاجل في النهاية أنه اختلاف بين طبيعتين أو معدنين من معادن الخليقة الإنسانية .

وقد كانت أمم الشرق القديم دوماً لها كهانات قائمة قبل أن تظهر الفلسفة اليونانية بألوف السنين . فامتد تفكير اليونان إلى محارِب الفلسفة التي كانت حرماً منيعاً في ظل الكهانات الشرقية لا يتخطاه عامة الناس . وظهر الفارق من أجل ذلك بين ثقافة اليونان وثقافة الشرقيين . ولو انعكس الأمر بين أرض اليونان وأودية النيل ودجلة والفرات لانعكست الآية بلا مرأى .

ومما يؤيد هذه الحقائق أن الكهانة القوية صنعت في أوربا حين نوطدت فيها مثل ما صنعت الكهانات في الشرق القديم . فلما امتد سلطان الكنيسة البابوية على الأمم الأوربية ضرب الحجر على العقول فأحجم

الناس دهرًا طويلا عن البحث المجرد والتفكير في حقائق الوجود ،
وبلغت الكهانة الأوربية على حداتها ما بلغته كهانات الشرق بعد
أحقاب وأحقاب تتوالى من بداية عهد التاريخ .

كذلك زعم بعض النقاد العسكريين من أهل أوربا أن الأوربيين
يمتازون على الاسيويين والأفريقيين في معدن الشجاعة والبطولة الحربية ،
واستدلوا على ذلك بانتصار اليونان مع قلتهم على الفرس مع كثرتهم في
معركة ماراثون ومعركة سلاميس .

فالواقع الذى أسفرت عنه دراسات الثقافات من النقاد العسكريين
المحدثين أن الفخار الوطنى قد لعب لعبته المعروفة بأخبار المعركتين فبالغ فيها
جد المبالغة وأضفى عليها ثوبا من الحماسة الخيالية خرج بها من حيز التاريخ
الصميم إلى حيز الملاحم الهومرية .

فلم يدر فى خلد « دارا » يوما من الأيام أن يستولى على أرض اليونان
لأنها أرض جرداء لا تنفعه للزراعة ولا للتجارة ولا ينحشى منها الخطر
العسكرى على دولته المترامية الأطراف . وإنما عناه أن يؤدب أرتريا وأثينا
لأنهما تجربتا على معاونة اليونان الثائرين عليه فى آسيا الصغرى . واغتم
لذلك فرصة الشقاق بين المستبدين وأنصار الحرية فى أثينا أو قبل إنه تلقى
من زعماء الشعب المتمرد وعدا بالانضواء إليه وخذلان أولئك المستبدين .
فأخمد الثورة فى آسيا الصغرى ثم زحف على « أرتريا » فعصف بها وأرسل
أهلها أسارى وسبايا إلى شطوط الخليج الفارسى يسامون فيها سوم الأرقاء .
ثم تقدم إلى أثينا وفى حسابه أنها منقسمة على نفسها مسرعة إليه
بالتسليم ولو من بعض طوائفها وزعمائها ، فلما وقع ما لم يكن فى حسابان
الفرس ولا اليونان وانفقت كلمة الأثينيين على الدفاع عن بلادهم لم

يشأن يطيل الحصار لأنه لم يقصد إلى إسقاط المدينة ولم يجد في الأمر ما يستحق المطاولة والعناء .

أما معركة سلاميس فقد كانت المصادفة فيها أغلب من التدبير . شغل الفرس بعد معركة ماراثون بالثورة المصرية ثم خرج زركسيس لقتال اليونان في جيش ضخيم مختلط الأجناس لكنه دون الضخامة التي صورها اليونان بكثير ، وكانت ضخامته واختلاطه عائقاً له ولم تكن من مزاياه ومرجحاته ، لأن قيادة جيش كبير من قبيل واحد أيسر جداً من قيادة بصف هذا الجيش وهو مختلط الأجناس متعدد الأهواء ، ولأن الجيش كان مرتبطاً بمعونة الأسطول الذي يلزم الشاطئ ويحمل له المؤنة والعتاد ويتكفل بنقله في المجازات البحرية ، فأصبح الجيش والأسطول معاً مقيدين بطريق واحد لا يعدوانه ولا يغيب علمه عن اليونان ، ولما التقى الأسطولان في سلاميس كانت كثرة السفن الفارسية عائقاً للأسطول أيضاً ولم تكن من مزاياه ومرجحاته . لأن المكان أضيق من أن يتسع لمناورات الأسطول كله ، ولأن زركسيس لم يتقدم إليه إلا لعلمه باختلاف قواد اليونان في إدارة البحرية ، وكان الواقع أنهم مختلفون وأن بعضهم أعلن في مجلس الحرب نية التراجع بمعظم السفن من سلاميس .

فلما نشبت المعركة قبل أن يتم هذا التراجع كانت الكفة الراجحة في جانب اليونان ، وأصبح تموين الجيش الفارسي ضرباً من المحال بعد ضياع السفن التي منى بنحسارتها في المعركة ، فعدل زركسيس عن المطاولة في المعركة البحرية وإن كان قد ظفر بالأتينيين في المواقع البرية .

ولا شك أن الذي أصاب الفرس في هذه المعارك قد كان يصيب

اليونان لا محالة لو أنهم كانوا في موضعهم وكانوا ينقلون الجيش مثل نقلهم وهو في اختلاطه وتعدد أهوائه .

فليست المسألة كلها مسألة اختلاف في معدن القوم أو منافب السلالة ، ولكنها اختلاف في الأحوال والملابسات ، وخلق بالذين ينسون آفة الاختلاط في الجيوش ويحسبون مغبتها على الفرس أو الشرقيين دون غيرهم أن يذكروا أن الصليبيين على وفرة جموعهم وانتماهم جميعاً إلى العنصر الأوربي قد أصابهم الهزيمة على أيدي الشرقيين وهم دولة واحدة تقل عنهم في العدد والعتاد ، ولم تعوز الصليبيين في تلك المواقع حرارة العقيدة وشدة المراس .

ومع هذا ألا يقول دعاة البدعة الآرية أن الفرس قديماً من سلالة الآريين وأنهم أقرب إلى أُم الشمال من يونان الجنوب ؟

إن العالم المحسوس فردريك هرتز يذكر أن اختلاط الزنوج بأهل أوربا في الزمن القديم . ومن المفيد في هذا الصدد أن ننقل هنا ما أوردناه في كلامنا على مفاخر الأجناس بالجزء الثاني من « ساعات بين الكتب » . . . وهذا بعض ما جاء فيه :

« . . للزنوج أثر في أوربا تدل عليه الجماجم التي وجدت في ألمانيا وبلجيكا وفرنسا وكرواتيا ومورافيا ، ووجد ما يشابهها منذ ثمانى سنوات في أفريقيا الجنوبية . وقد بنى أثر للأقزام السود في جبال الألب إلى عهد بليني الذي تكلم عن هؤلاء الأقزام وعززت كلامه القصص والأساطير .

ويزعم شمبرلين أن عرفان حقوق الحياة هو مزية الآريين التي لا يعرفها الساميون في الشرق لاستغراقهم في المادة وتقديمهم المال والحطام على الأذهان والأرواح . فيجيبه الأستاذ هرتز بجواب مفحم هو المقابلة

البسيطة بين شريعة الرومان وشريعة حمورابى فى محاسبة المدينين فاللوح الثالث من ألواح القانون الرومانى يبيع للدائنين أن يقطعوا لحم المدين ويقتسموه بينهم وأن يقتلوه قتلا فى مدى سبعة وعشرين يوماً من يوم القبض عليه وتكيله فى الحديد والحبال . وأما شريعة حمورابى فهى تقضى بأن يخدم المدين دائته ثلاث سنوات . والقانون يحميه فى خلال هذه الخدمة من سوء المعاملة والإرهاق . زد على هذا أن الفرق واضح بين الشريعتين فى أمور أخرى : منها أن السارق المضطر معذور فى شريعة حمورابى . وهو غير معذور بحال من الأحوال فى شريعة الرومان ، وأن الأب الرومانى يجوز له أن يبيع أولاده ، ولا يجوز ذلك للآباء عند البابليين ، وأن الزوج البابلى لا يجوز له أن يقتنى السرارى بغير إذن من زوجته وليس للزوجة مثل هذا الحق عند الرومان ، وأن المدين يحق له أن يطلب الخط من دينه إذا نقصت غلة أرضه وليس فى الشريعة الرومانية شئ من هذا القبيل . وهكذا وهكذا من شواهد الرحمة وتقديم الحياة على الخطام فى شريعة حمورابى ثم من شواهد القسوة وتقديم الخطام على الحياة فى شريعة الرومان .

ويرفع شميرلين اليونان إلى السماء ويقول إن علومهم وفلسفتهم وفنونهم مرجعها إلى طبيعتهم الآرية التى يمتازون بها على الآسيويين والساميين . فيقول له هرتز إن أرسطو فى زمانه كان يطرئ مواهب الآسيويين فى الفنون ويحكم على أمم الشمال بالعقم الذى لا علاج له فى المعارف الفنية والسياسية لعلة الجوانب التى لا تبدل لما على تعاقب الأزمان . ويقول هرتز أيضاً إن ثوسيديد المؤرخ اليونانى . ذكر أن اليونان كلها كانت فى قبضة البرابرة . وذكر هيرودوت أنه كان يسمع فى زمانه لغة البرابرة فى بعض

أنحاء وطنه ، وأن العلماء المحدثين - كرشمر وكيسلنج وفك - أقاموا الأدلة على أن سكان آسيا الصغرى وسكان اليونان كانوا جنساً واحداً من الآسيويين ، وأن أسماء المواقع اليونانية لا ترد إلى مصادر من هذه اللغة لأنها مشتقة من اللغة القديمة كما اشتقت منها أسماء الأرباب فيما يقول هيرودوت . والأقوال متفقة على أن طاليس رأس الفلسفة اليونانية من أصل آسيوى سامى وأنه تعلم العلم في البلاد المصرية ، وكذلك تتفق الأقوال على أن زينون رأس الفلسفة الرواقية آسيوى الأصل والنشأة ، بل يقول فيرث : إن هومر نفسه اسم سامى آسيوى محرف من « زومر » بمعنى المغنى أو الزامر ، وغير ذلك كثير من الأقوال عن الفلاسفة الآخرين .

ولا يريد هرتز أن يقف في الإنصاف عند شعب من الشعوب ولا جنس من الأجناس . لأنه يرى أن الفواصل بين أى شععين في العالم ليست من البعد والحيلولة بحيث تستعصى على التقارب مع تشابه الأحوال ومؤاتاة الأيام . فهنيئال الزنجى الذى اقتناه بطرس الأكبر ارتقى بذكائه واجتهاده إلى رتبة مهندس في المدفعية وبني بسيدة من الأشراف ، وكان حفيدهما بوشكين أكبر شعراء الروس وأحد كبار الشعراء في الدنيا ، وسليمان وهو زنجى آخر كان في البلاط النمساوى في القرن الثامن عشر بنى بسيدة شريفة واقترنت بنته بسيد من الأشراف ، وتزوج تاجر من هامبورج بنت سلطان زنجبار فبلغت بأدبها ورجاحة لها مكانة تغط عليها في البلاط الألماني وأصبحت صديقة حميمة للإمبراطورة فردريك وكتبت لها ترجمة حياتها التى عنوانها « من قصة أميرة عربية » . وقد كان الدم الزنجى يجرى في عروق دوماس الكبير ودوماس الصغير كما هو معروف

يقول هرتز : « لا ترى أحدا يزعم أن هناك فجوة لا تعبر بين الحمص الأحمر والحمص الأزرق أو بين الحصان الأبيض والحصان الأسمر . أما في بني الإنسان فالفرق البسيط - بالغاً ما بلغ من التفاهة - كاف لأن ينشئ من الأوهام الجنسية والعصبيات الشعبية أسخفها وأناها عن الحقيقة . وما الفرق هنا مع هذا إلا اختلاف في الدرجة لا في الجوهر . فقد يرى المجهر أن الفروق الكثيرة بين ألوان بني الإنسان إنما هي فروق في درجات التجمع والتوزيع في مادة صبغة واحدة مُتأثلة في الجميع » . كلام إذا رجعنا به إلى الأسانيد والبيانات فهو أقوى سنداً وأثبت بينة من كلام المفرقين في تمجيد الأوربيين وتفضيلهم على جميع الشعوب ، وإذا رجعنا به إلى الهوى فهو أقرب إلى هوانا وأولى بإصغائنا من كلام أولئك المفرقين .

فلا وقائع التاريخ ولا مباحث العلم ولا مشاهدات العيان تؤيد دعوى العنصريين الذين يستخلصون من النوع البشري كله نخبة واحدة ويفردونها بأفضل المزايا وأشرف الأخلاق بين السلالات الإنسانية . ولكننا نتجاوز الحد المأمون إذا تجاوزنا هذه الحقيقة إلى ما وراءها ، فكل ما هو محقق في صدد المفاخر العنصرية أن العلم لا يؤيد الامتياز المطلق الذي يدعيه العنصريون لبعض السلالات ، ولكنه لا ينفي وجود الاختلاف بين العناصر ولا توارث الخصائص الجسدية وما يتعلق بها من الخصال النفسية . فهذه فروق موجودة يزداد ظهورها في بعض الأفراد وينقص في آخرين ولكنها لا تبطل ولا يتأتى لنا أن نتجاهلها ونتجاوز عنها إلا إذا تجاوزنا العيان وأغضينا عن المحسوس المائل لجميع الأذهان . وقد يوجد من العنصريين المختلفين شخصان يتشابهان وتصعب التفرقة

بينهما على الباحث المحقق فضلاً عن الناظر في عرض الطريق . ولكن التشابه حيناً لا يمنع الاختلاف في جميع الأحيان . ولو ذهبنا نبطل المخالفة بين الأنواع كلما وجدت المشابهة بينها لأمكن إنكار الفارق بين الإنسان والحيوان على هذا القياس ، فإذا قيل إن الحيوان يمشى على أربع أمكن أن يقال كذلك إن بعض الإنسان يمشى على أربع ، وإذا قيل إن الحيوان أعجم أمكن أن يقال كذلك إن بعض الإنسان أبكم وإن بعض الطير ينطق كما ينطق الإنسان وإذا قيل إن الحيوان مسلوب العقل والتفكير أمكن أن يشار إلى أفراد من الناس لا يعقلون ولا يفكرون ، وإذا قيل إن الإنسان والحيوان لا يتناسلان أمكن أن يقال إن الكلب حيوان والهر وهما لا يتناسلان .

فوجود المشابهة في بعض الأفراد لا ينفي المخالفة في عامة الافراد . . . وقد يتعذر تعريف الفارق الحاسم بلغة العلم المقرر ولكنه مع ذلك يبقى فارقاً حاسماً إلى أن يوجد التعريف .

والحدُّ المأمون الذي لا نريد أن نتجاوزه في هذا الصدد هو ما أسلفناه من أن الدعوى التي تفرد بعض العناصر بأفضل المزايا وأشرف الأخلاق هي دعوى يعوزها الدليل القاطع من وقائع التاريخ ومباحث العلم ومشاهدات العيان . أما الاختلاف بين خصائص الأجناس فهو موجود لا شك فيه وإن تفاوتت درجات ظهوره في بعض الأفراد .

فن المشاهدات - ومن البدييات معاً - أن العزلة في النسب وفي التعرض للمناخ والبيئة وأحوال المعيشة وعادات الاجتماع تعقب العزلة في الصفات الجسدية والخلائق النفسية على السواء .

ومن المشاهدات - ومن البدييات معاً - أن الشعب الذي يقضى

عشرة آلاف سنة ولاءً في مكافحة العوارض الجوية والاحتيايل على موانع الطبيعة والتأهب للمفاجآت من جيرانه ومن طوارق الأرض والماء والسماء ، لا يشبه شعباً قضى مثل تلك الدهور في الدعة أو في التعويل على المصادفات وهو معنى من الحيلة والجهد في صراع الحياة .

وقد أظهر العلم الحديث أن التوارث في الخلق والخلق منوط بالناسلات Genes التي توجد في خلايا الذكور والإناث ، وأن هذه الناسلات تتقارب في أفراد القبيل الواحد كما تتقارب في أفراد الأسرة الواحدة . ولكننا لا نعرف اليوم على وجه التحقيق كم من الرمن يكنى لتحويل العوارض التي تنشأ من البيئة والمعيشة إلى موروثات تستقر في تكوين الناسلات وتنتقل من الآباء إلى الأبناء ، ولا نعرف على وجه التحقيق هل ما يوجد الآن من اختلاف الناسلات وليد الاستمرار الطويل في عوارض البيئة والمعيشة أو هو وليد أصل آخر من أصول الاختلاف في التكوين .

والذى يلوح لنا من المشاهدة المحسوسة . ونعتقد أن العلم وشيك أن يمثله في تجربة من التجارب المقررة - أن فراسة الوجه الإنساني تدل على كثير ، وأن هذه الدلالة مرتبطة أوثق الارتباط بالأعصاب ثم بالعظام . فأنت لا تخطئ تاريخ الأمة كلها إذا نظرت إلى وجوه أبنائها ، ولا يفوتك أن تعلم أن هذا الوجه السهل الذى تغلب فيه ملامح اللحم والدم على ملامح الأعصاب والعظام هو وجه أناس مارسوا في ماضيهم قليلا من الكفاح وقليلا من التجارب وقليلا من حوافز النفوس ، وإن ذلك الوجه الحازم الذى يلفتك إلى متانة الأعصاب والعظام قبل أن يلفتك إلى بضاضة اللحم والدم هو وجه أناس ثابروا على الاعتزام والجلد ولم

يستسلموا لسهولة العيش منذ زمن بعيد ، وليس في وسعنا أن نعلم اليوم كيف تورث هذه الملامح الحازمة في الوجوه ، فإن اللحم لا ينقلها والدم قد يخزن الناسلات ولكنه لا يخزن القوى التي هي من قبيل الطاقة الكهربائية في الأحياء وغير الأحياء ، فأغلب الظن إذن أنها تنقل في مخازن الأعصاب ثم في مخازن العظام ، ولعلها تنحصر في الأعصاب على نحو لا يصعب على العلم - فيما نقدره - أن يهتدى إليه ، وقد يكون للأعصاب فيها اتصال كبير بالدماغ وسرعة الاستجابة بينه وبين مواطن الانتباه والتنبيه .

ومهما يقل العلم غداً في هذه المسألة فالذى نجزم به منذ الساعة أن وجوه الأمم التي قضت ألوف السنين في الجلد والاعتزام تخالف وجوه الأمم التي تيسرت لها المعيشة طوال تلك السنين ، وإن الاستدلال بلامح الوجوه طبيعة في جميع الأحياء ، لأن الحيوان ينظر أول ما ينظر إلى وجه الحيوان الذى يقابله ليعلم هل يسالمة أو يناجزه ويتحداه ، وإن كانت الوجوه لا تبدى كل ما في النفوس والعقول فهي كذلك لا تخفى كل ما في النفوس والعقول .

وحسبنا الآن أن العلم يثبت كما تثبت المشاهدة أن خصائص الأجناس تورث إلى زمن بعيد ولا سيما حين ينحصر التزاوج في أبناء القبيلة الواحدة أو الوطن الواحد ، وإن بعض العادات الاجتماعية التي تنجم من تشابه المعيشة تثبت في الأفراد بعد زوال أسبابها إلى حقبة طويلة ، وإن الأبناء ينقلونها عن الآباء بالقدوة والتلقين وإن لم ينقلوها بالوراثة كما تنقل الخصائص التي تتمثل في الناسلات .

وليس بنا هنا أن نبسط القول في خصائص الأجناس جميعها ، لأن

الجنسُ الأسود هو الذى يعنينا منها فى هذا الكتاب ، وهو من الأجناس التى يسهل تمييزها بالخصائص الموروثة وعادات القدوة والمعيشة ، والاختلاف فى وصفه أقل من الاختلاف فى وصف غيره من الأجناس البشرية الخمسة أو الثلاثة على قول بعض المتأخرين .

ونحن ننقل هنا شذرات من أوصافه فى كتب علم الأجناس وعلم الإنسان ونصحح بعضها ببعض ونضيف إليه ما نعلمه من خصائص هذا الجنس بالمعاشرة والاختبار .

قال الدكتور سايس Sayce صاحب كتاب أجناس العهد القديم :

« إن الزنجى مستطيل الوجه شديد بروز الفكين مع ضمور فى الذقن ، أنفه أفطس واسع المنخرين ، وشفته غليظتان ، وأسنانه كبيرة جيدة ، وضررس العقل منها يظهر سريعاً ويذهب أخيراً ، وهو بسيط الجمجمة طويل الذراعين ، وريلات ساقه معيبة ، وقصبة رجله منبسطة مع انقباض فى الإبهام ، ومادة الصبغة السوداء فى الزنجى كما أسلفنا تسرى إلى عضلاته وقد تسرى إلى دماغه وهو بالقياس الى الأدمغة الأخرى بسيطة التلافيف . وميله إلى الفنون قليل ما عدا الموسيقى فهو مغرم بها أشد غرام ، ومن عاداته أن يتأثر بالشعور دون التفكير . ويقال إن أبناء الزوج قلما يتقدمون بعد الرابعة عشرة ، ويغلب عليه الكسل والإيمان بالخرافة ومن طبعه العطف والوفاء . وهما خصلتان ترغبان من قديم الزمن فى اقتنائه واستخدامه . فنذ عصور الفراعنة فى الأسرة الأولى كانوا يبعثون الحملات إلى بلاد كوش لاستجلاب العبيد منها ، وكان عدد الزوج المجلوين كبيراً على الأغلب فى جميع الأزمان . ولعل عبد ملك الذى

أنقذ حياة النبي أرميا كما جاء في الأصحاح الثاني والثلاثين كان من الزوج وكذلك الكوشى جد اليهودى الذى جاء ذكره في الأصحاح السادس والثلاثين إذ يقول : (فأرسل كل الرؤساء إلى باروخ يهودى ابن شنيا بن شلميا بن كوشى قائلين : الدرج الذى قرأت فيه في آذان الشعب خذه بيدك وتعال) .

« ومع قدم الاتصال بالحضارة المصرية تلك القرون الطوال لم يتعلم الزنجى منها على الأرجح غير صهر الحديد ، فجاء عصر الحديد معقبا لعصر الحجر توأ في تاريخ بعض القبائل بغير توسط من عصر الشبه أو النحاس .

« والزنجى مقلد شديد الميل إلى التقليد . ولهذا يلفت النظر أنه لم يظهر قط رغبته في الرسم خلافاً للمصرى المثقف ، بل خلافاً لأبناء قبائل البوشمان المقيمين بأقصى الجنوب في القارة الإفريقية ، فإن رسوم الحيوان على الجدران التى تحتوى بها قبائل البوشمان حية ملهمة ومنها ما ليس يُخجل الفنان الأوربى إذا نسب إليه ، وهى على الجملة تفضى بنا إلى سؤال عن قدم الجنس الزنجى في التاريخ .

« ففي جنوب مصر تشاهد الصخور الرملية التى تغطيها رسوم الحيوان والإنسان ومنها الحديث الذى لا شك في حداثةه والقديم الذى لا شك كذلك في قدمه ، ويرى على الصخر الواحد شيء من تلك الرسوم ونقوش ترجع إلى الأسرة الخامسة ، فأما النقوش الأخيرة فيبدو عليها تغيير قليل من أثر العوارض الجوية حتى ليخيل إلى الناظر إليها أنها من عمل أمس القريب . وأما الرسوم الأولى فيبدو مما أصابها من أثر العوارض الجوية أنها قد مضى عليها ردىح طويل من الزمان ، ويرى - عدا هذا -

بين الرسوم رسم الزرافة كثير التكرار . فإذا لاحظنا أن ذلك الإقليم كان أرضاً قاحلة من بداية التاريخ المصرى دل حضور الزرافة فى رسومها على عهد بعيد القدم كانت فيه تلك الأرض بطاحاً مروية بالماء تغطيها أشجار الحسك التى يرعاها الزراف . وينتشر رسم النعامة فى تلك الرسوم كما ينتشر رسم الزرافة مع اختفاء رسم النعامة من المقاطع الهيروغليفية التى تمثل فيها الطيور المصرية على وفرة ملحوظة ، وخلق بهذا أن بدلنا على أن النعامة لم تكن معروفة عند مخترعى الكتابة المصرية الأولى . وأن سير فلاندرس بترى على حق حين يستخلص من هذا أن الرسوم التى ذكرناها هى بقايا متخلفة مما قبل التاريخ لأسلاف المصريين فى وادى النيل . وتؤيد رأيه كشوف السالمين فى جهات أخرى من أفريقية الشمالية حيث نشاهد أمثال تلك الرسوم فى جنوب تونس ومراكش . وقد أستطيع الاهتداء إلى تاريخها التقريبى من حالة واحدة أمكن العثور عليها . فإن الدكتور بونيه Bonnet وجد فى وهران الأداة الحجرية التى كانت تنقش بها تلك الرسوم ملقاة تحت بعض الصخور التى عليها تلك الرسوم ووجد على مسافة غير بعيدة منها المصنع النيولولى الذى تصنع فيه تلك الآلات . ومن ثم يفهم أن الرسوم ترجع إلى العهد السابق لاستبدال الآلات المعدنية بالآلات الحجرية . وهو عهد فى مصر جد بعيد .

«فن المحتمل إذن على ما يظهر أنه فى العهد الذى كانت فيه الصحراء الكبرى مخصبة وكانت دال مصر ذراعاً من البحر الملح كان جيل من الناس قريب إلى جيل البوشمان يتزل فى أفريقية الشمالية بين السواحل الأطلسية وشواطئ نهر النيل . ولعل قبائل الأكاسين وغيرها من قبائل الأقزام المستديرة الرءوس فى أواسط أفريقية بقية ذلك الجيل

القديم ، وقد أجلتهم عن مواطنهم غارات الزنج ولم تزل بهم غارات قبائل البانتو أو الكافرين حتى ألبتهم إلى جنوب القارة الأفريقية ، وقد كانوا جسديا دون أعدائهم في القوة وإن لم يكونوا دونهم في المزايا الأدبية ، وكانوا على كلِّ ذوى ملكة فنية تعوز الزنج والكافرين على السواء وهى ملكة الرسم . إذ لم يكن فى وسع الزنجى أن يرسم أو يتمم رسوم الصخور فى بلاد البوشمان ولا رسوم الصخور فى أفريقية الشمالية .

« وقد كانت الجبال التى تحدها الصحراء من الشمال مسكن قبائل من اللويين منذ عهد سحيق فى القدم ، وقد وصفنا هذا الجيل آنفاً وبيننا أنه ينتمى إلى سلالة مميزة بين سلالات الجنس الأبيض ، وربما شاهدنا اليوم فى قرى إنجلترا وأيرلندا فروعاً من تلك القبائل على حسب الملامح الظاهرة ، والنموذج العتيق الذى تبديه لنا تلك القبائل تؤكد لنا الآثار المصرية كما تجلوه الملامح البيضاء التى بقيت له إلى الآن . . . » .

• • •

وكلام الدكتور سايس هذا فى أوصاف الجنس الزنجى وتاريخه العريق قليل الخطأ كثير الصواب ، أو هو من أصح ما كتب فى هذا الموضوع ، ويزاد عليه من كتب الأجناس الحديثة أو كتب علم الإنسان أوصاف أخرى بعد بعضها من قبيل التصحيح وبعضها من قبيل التكملة ، نأتى عليها بإيجاز .

فاللون الأسود فى الأجناس السوداء لا يتعمق إلى ما وراء البشرة الظاهرة ثم تتساوى ألوان الجسم الإنسانى فى جميع الأجناس ، وإنما يأتى السواد من صبغة فى الغشاء الذى يلي البشرة الظاهرة ، ولا يسرى على ما وراءه إلا عرضاً فى قليل من الأفراد .

وقد نفهم دلالة الضيق والسعة في تركيب الجمجمة إذا فهمنا أن جمجمة الجنس الأبيض بين الأوربيين ليست أوسع الجماجم الإنسانية ولا أوسع من جماجم غيرها من الأمم التي لا تجاريهم في الحضارة . فإذا حسبنا قطر الدماغ من الأمام إلى الخلف مائة فنسبة العرض إليه في الزنجى سبعون وفي الأوربي ثمانون وفي الساموي من أبناء الجزر المعروفة غرب المحيط الهادئ خمسة وثمانون .

والزنجى طويل الذراعين تصل ذراعه إلى الركبة في بعض الأحيان . وشعره الصوفي المعروف هو أوضح العلامات المميزة له بين جميع الأجناس .

أما مزاياه الثقافية فيجب أن نتذكر حين نقابل بين تخلفه وتقدم الأجناس الأخرى أنه قد بلغ من الثقافة كل ما يحتاج إليه . وأن العبرة بالجهود العقلية الذي يتطلبه فهم أمر من الأمور لا بالطبقة الثقافية التي تحسب لذلك الأمر في سلم الثقافة العامة . فالمعادلات الرياضية العليا أرقى في سلم المعرفة من الجمع والطرح في الحساب . ولكن المعادلة الرياضية العليا لا تتطلب من ذهن المهندس المتعلم جهداً أكبر من جهد الرجل الزنجى حين يفهم أن خمسة في خمسة تساوي خمسة وعشرين . ولا سيما إذا كانت نهاية العدد عنده هي مجموع أصابع اليدين والرجلين . أي عشرين .

وقد عرف أن الزنجى في قبائل « الوى » التي تقيم عند « سيراليون » قد اخترع نوعاً من الكتابة يوائم حاجاته ولا يرجع إلى أساليب الكتابة الأخرى التي عرفت في بلدان الحضارة .

أما حظه من الفنون فليس بالحظ القليل إذا نظرنا إلى حاجاته

الطبيعية ودواعيه الضرورية إلى المعيشة الاجتماعية ولعل « هافلوك إيليس » حين قال : « إنه قد سلك سبيله إلى الحضارة راقصًا » قد لخص ملكاته الفنية أجمل تلخيص .

فالرقص لا يكون بغير نغمات ، والمرح المطبوع في الزنجي هو مبعث وحيه الذى ألهمه الرقص والغناء ، فهو عظيم الولع بالأغاني سريع الأذن إلى التقاطها حين يسمعها مرة أو مرات قليلة ، وينبغى أن نفرق بعض التفرقة بين ملكة الموسيقى وملكة الغناء والإيقاع لأن الأصوات الموسيقية تبلغ من التراكب والتنوع مبلغًا يبعدها من الإيقاع الذى يصاحب حركات الأجسام فى الرقص الفطرى أو الرقص الحديث . والزنجي يحب الغناء الراقص ويبرع فيه . وقد عرف به حيث نزل من بلاد العالم فى عصور التاريخ ، ومن هذا رقص النوبة الذى علمنا - فى سيرة النبی علیه السلام - أنه دعا السيدة عائشة رضى الله عنها إلى التفرج به والنظر إليه ، وكان يعرف بالزفیف لسرعته وتوالى الحركة فيه .

ولما اشتغل الزنجي بالفنون الأخرى كصنع التماثيل كان الإيقاع رائده الأول فى هذه الصناعة التى قد يظهر للوهلة الأولى أنها بعيدة عن الغناء . لأن النسب التوقيعية كانت تغلب فى التماثيل الزنجية على مشاهدات الحياة ، وكانت منذ وجدت تنقل الشبه فتحسن نقله ولكن على نمط واحد يقل التصرف فيه ، وهى لا تزال اليوم بحيث وجدت منذ آلاف السنين .

وشيوع التماثيل وصوغ المعادن ونسج الثياب المشاة بالخطوط والأشكال مع ندرة الرسم فى قبائل الزنج أمر لا غرابة فيه . لأن تقليد الجسم فى أبعاده الثلاثة أسهل من تقليده فى بعد واحد ، وهو التقليد

الذى يوجب التصرف لتمثيل العرض والطول والقرب والبعد حيث لا عرض هناك ولا اقتراب ولا ابتعاد.

ولتمثيلهم - مع غلبة الإيقاع عليها - سمة أخرى تعرف بها بين سائر التماثيل القديمة ، وهى سمة الخوف والتخويف ، وهى كذلك سمة لا غرابة فيها إذا نظرنا إلى الأخطار التى تحدق بالزنجى بين الوحوش والحيات وآفات الأرض وصواعق السماء . ونظرنا إلى الغرض الذى يتوخاه من صنع كثير من تماثيله . وهو لبس الوجوه والأقنعة التى تخيف أعداءه فى ميدان القتال .

ولم تزل فنون القتال عند الزنجى ضرباً من الفن الجميل لأنها تمزج بين الحركة الرياضية وبين الرقص والإيقاع والغناء . وليس أشبه بمناظر الرياضة البدنية من منظر الزنجى وهو يقذف بالرمح ويوازن بين وضع يديه وكتفيه وبين وضع صدره وكشحه حين يقذف به فيقع حيث أراد ، كأنه قد ركزه فى الهدف يميناه .

والزنجى شجاع مقدام لا يهاب الموت ولا ينكص عن الألم ، وقد تلهبه السياط ويسيل الدم من أهابه الممزق وهو صابر لا يتلوى ولا يتأوه . لأنه يحسب الفرار من الألم كالفرار من الموت جبناً لا يجمل بالرجال . وقد عودته بمجالدة الوحوش والأفاعى والمخازرة الدائمة من المتربصين به أن يقسو عليها وأن تقسو عليه . وأن يحتمل القسوة على نفسه كذلك . . . وفيه إلى جانب الصبر والشجاعة عناد شديد حين يخشى أن يتهم بالجن إذا صدع بالأمر فراراً من العذاب .

وهو مصدق وفي يؤمن بالعقائد التى توارثها عن أسلافه وأكثرها من

قبيل السحر وعبادة الأرواح الخفية ، وتقديس الرُقى والتعاويذ التي نعصمه من فعل تلك الأرواح .

والوفاء فيه طبيعة لأنه نشأ على طاعة الرئيس في القبيلة وطاعة الساحر الذي يعلمه ويحميه . وقلما يغدر أو يخون إذا وجد من يكسب ثقته ويشتمل على عطفه وولائه . وإنما يغدر ويخون إذا توجس وسلبت منه الطمأنينة . فإنه ليرجع إذن إلى حياة المخاوف والأخطار التي علمته الحذر الدائم بين الوحوش والآفات . أو بين الأسرار الغوامض التي يتكفل الساحر بجلائها له على ما يعتقد ويروم . فيعمل في حالة التوجس وسلب الطمأنينة عمل الطريد المطارد أو عمل المهاجم الذي يتوقع الهجوم من كل مكان . فلا يبالي ما يصنع وهو غاضب يائس محروم من العطف والحنان . وينبغي - قبل مراقبة الزنجى وتسجيل غرائبه - أن ننسى أننا نراقب خلقة غريبة تخالف ما طبعنا عليه . لأننا حريون أن نستغرب كل شيء إذا نحن توقعنا الغرابة والاستغراب . فيمر بنا العمل الذي يعمله أبناء لغتنا وعنصرنا دون أن نلتفت إليه . ثم يمر بنا هذا العمل بعينه حين يعمله الغريب فنسرع إلى التنبه له ونحسبه من البدوات التي لا تصدر إلا عن أمثال ذلك الغريب . وكثير من غرائب الزنوج أو غرائب الأجناس عامة لا تحسب من قبيل الغرائب إلا على هذا الاعتبار .

، ، ،

ولو شاء الناس لالتفتوا إلى هذه الملاحظة في الحقائق الاجتماعية الكبيرة كما يلتفتون إليها كل يوم في الحقائق الاجتماعية الصغيرة . فإننا نسمع العامة في كل مكان يتحدثون عن بعض المشهرين بالسوء فيقولون عنه « إن صوفته حمراء » ويعنون بذلك أنه يفعل الشيء الذي يفعله غيره

فسرعان ما يتنبه إليه الناس ويتعقبونه بالندم والتشهير . ويمضى غيره بفعلته دون أن يتنبه أحد إليه فضلاً عن ذمه والتشهير بسمعته . وهم يستعبدون هذا الوصف من لغة الرعاة الذين يفردون الحروف « الأحمر » بالزجر والعقاب وهو لا يصنع شيئاً غير الذى يصنعه إخوته فى القطيع من ذوات الفراء السود . ولكنه يظهر وهى لا تظهر . فيعاقب وحده وتنجو هى من الملاحظة والعقاب .

والجنس الأسود له غرائبه الكثيرة فى الأخلاق والعادات . ولكننا إذا بدأنا بالاستغراب أو كان الاستغراب سابقاً للمراقبة كنا خلقاء أن نجد الغرابة حيث لا غرابة على الإطلاق . وحسبنا أنه يخالف الناس فى أصول الطباع وهو لا يفعل إلا ما يفعله فى مكانه سائر الخلق من أبناء آدم وحواء .

أما مداركه العقلية فمن الواجب قبل الحكم على طاقتها الأصيلة أن نذكر الضرورات المختلفة التى باعدت بينه وبين أجيال البشر الأخرى فى مواطن الإدراك . وهى مباحث العلوم والصناعات .

فليس من قصور العقل وحده أن نجد الزنجى مقصراً عن الأجناس البيضاء والسمراء فى علوم الهندسة والفلك والطبيعة والكيمياء . لأن حياته لم تلجئه قط إلى الملاحاة فى البحار الواسعة فيعرف ما عرفته الأمم الأخرى من حركات الأجرام السماوية ومن علوم الفلك والظواهر الجوية والأنواء . ولم تلجئه قط إلى إقامة الصروح ومزاولة البناء بالأحجار فيعرف من قواعد الهندسة وصناعات النحت والعمارة ما عرفته الأمم التى تهيأت لها الوسائل ودفعتها الضرورات إلى التشييد والتعمير . ولم تلجئه قط إلى توقيت مواعيد الرى ولا السيطرة على مجارى الماء فيتعلم الهندسة ويدرك خصائص

الجوامد والسوائل ويراقب أسباب الخصب والقحط مراقبة المدير المسئول عن عواقب الإهمال في هذا التدبير . ولم تلجئه قط إلى الافتنان في طهو الغذاء ونسج الكساء وصوغ الآنية والأدوات التي تستخدم في هذه الأغراض . ولم تلجئه قط إلى تفتيق الحيلة في حفظ الطعام وادخاره وصيانتها من العطب والفساد ، ولا ألبأته إلى تفتيق الحيلة في ابتداع أفانين الحرب من مطاولة للحصار وتنويع للأسلحة واعتماد على أسلوب في الكر والفر غير أساليب الأحياء المحدثه به في الجرأة تارة والاستخفاء تارة أخرى ، لأن أبناء القارة أجمعين درجوا على غط واحد في الهجوم والدفاع واستخدام السلاح وتشابهوا في مواقع واحدة يسكنها المغيرون والمدافعون ، فلا حاجة بهم إلى التفوق والاحتيايل على مختلف المواقع والأسلحة والأساليب .

وكل ما احتاجوا إليه من ضرورات المعيشة وجدوه سهلاً ميسراً غنياً عن الجهد والحيلة في مواعيده التي تعودوها ، فإذا بقي من وراء ذلك سر يجهلونه أو محذور يتقونه فهناك الساحر كفيل به يكفيهم مؤنته إذا صدقوه وأطاعوه ، ومن ثم عاشوا حياتهم كلها وقضوا عصور التاريخ وما قبل التاريخ وهم بين الدعة والطمأنينة إلى العيش ، وبين القتال والجلاد ، وبين التصديق والتعوذ بالرقى والطلاسم . ولزموا هذه الحالة أعواماً بعد أعوام وأحقاباً بعد أحقاب . بغير حاجة إلى التبديل أو التجديد .

فالأمم التي عرفت الهندسة والفلك والعمارة والكيمياء وأدوات البذخ والرفاهة إنما عرفت أنها لا تستطيع أن تعيش في بيئتها حقبة طويلة بغيرها ، ولو عاشت في القارة الإفريقية كما عاش الزنوج لأهملتها ولم تفكر فيها ، ولا شك أن الزنوج لو بدأوا الحياة الاجتماعية حيث بدأها أولئك

الأقوام لا اخترعوا اختراعهم وفهموا فهمهم وعرفوا معرفتهم وأعادوا سيرتهم
بغير فارق كبير في جوهر الأمور.

أما الطب ومداواة الأمراض فكل ما حذقه الإنسان الفطري بمعزل
عن العلوم الأخرى فقد حذقه السود وبرعوا فيه ، ولم تفتهم خاصة لازمة
لهم من خواص العشب والنبات أو خواص الإيحاء والتأثير بالعقيدة
والتنويم .

ونحن لانعنى بهذه المقابلة بين ضرورات السود وضرورات غيرهم من
أجناس البشر أن الفرق بينهم وبين تلك الأجناس معدوم أو قريب
التحصيل والاستدراك ، ولكنتا نعني أنه يرجع إلى أسباب تجوز عليهم كما
يجوز على غيرهم فهم وسائر البشر في أصولها سواء .

ولو نظرنا إلى النصيب الذي تيسر لهم من الثقافة الأدبية فحصلوه
وأجادوه لعلمنا أنهم حريون أن يبلغوا بالعطف والمعاملة الحسنة شأواً
محموداً في مجال الآداب والعلوم ، فقد نبغ منهم في العربية شعراء
معدودون من طراز عنتره وسحيم عبد بنى الحسحاس ونصيب والأغربة
المشهورين الذين أجادوا الحماسة كما أجادوا الغزل والنسيب ، وبين غزلهم
والأغاني المرقصة التي عكف عليها السود من آلاف السنين صلةً قريبة
لاتصعب النقلة فيها ، ولكن الطبقة الفنية - والنفسية - التي ارتفعوا
إليها في ذلك الغزل تدل على أن الآباد الطوال التي قضوها في المعيشة
الآبدة لانحجبهم عن الظرف الاجتماعي إذا وجدوا السبيل إليه ،
وما أحسب شاعراً من شعراء الحضارة يترفع عن توقيع هذه الأبيات التي
نظمها سحيم لمعشوقة مريضة فقال :

ماذا يريد السقام من قر كل جمال لوجهه تبع

ما يرتجى؟ خاب؟ من محاسنها أماله في القباح متسع؟
غير من لونها وصفرها فارتد فيه الجمال والبدع
لو كان ينبغي الفداء قلت له هاأنا دون الحبيب ياوجع

ففي هذه الأبيات من روح الفكاهة ودعابة الظرف والفطنة إلى محاسن
الملاحاة المريضة والخبرة بتدليل النساء غير قليل .

* * *

ويبدو لنا أن فوارق الإدراك لم تضل العقول في أمر الجنس الأسود كما
ضللها ذلك اللون المائل للنظر قبل مثول الفوارق العقلية والخلقية للبصائر
والأفكار ، فعاملتهم الأمم منذ أقدم العصور معاملة لاهوادة فيها . وانطلق
النخاسون في طريق البحر الأحمر وبحر الهند ونهر النيل يحملونهم إلى بلاد
العرب وماين النهرين .

كما يحملونهم إلى مصر واليونان والرومان . ولم تكد الدنيا الجديدة
تنكشف لأبناء الدنيا القديمة حتى شاطرتها في هذا السباء الذي بدأت به
أقدم الأمم من ألوف السنين ، ولعل فضائل هذا الجنس - وفي مقدمتها
الوفاء والصبر والقناعة - كانت أسرع من نقائصه في الجناية عليه . وفدا
تمادى النخاسون في نقل السود إلى أمريكا وانقطعوا عن نقل الهنود الحمر
إلى أوربا بعد سنوات قليلة . لإخفاق التجربة وضباع الأمل في صلاح
هؤلاء الهنود « للتطبيع » والعمل المفيد .

وخلاصة ما يقال في تاريخ الجنس الأسود إنه جنس قديم معرق في
القدم يوغل في أصوله إلى ما قبل التاريخ بزمان بعيد .
وإنه جنس قد وقف به النماء عند حدود الفطرة الأولى لأن معيشتة في

القارة الإفريقية ، لم تلجئه إلى كشف العلوم وتعمير المدن واختراع الصناعات وتدبير وسائل الادخار والحيلة للمستقبل البعيد . ولكنه عرف كثيراً من الفضائل والملكات التي نوائمه في بيئته المستقرة . لأنه عرف النضال والمرح والإيمان . فعرف الشجاعة والوفاء والصبر على الألم . واستنبط الفنون التي توافق مرجه وإيمانه بالمجهول .

وكانما اتفقت عليه منذ القدم عوادي الإجحاف جميعاً ولم يسعده حظه بياعث واحد من بواعث الإنصاف والرعاية . فاصطلحت عليه أسباب الجشع والاستغلال وغرابة المظهر وقلة الحيلة في الدفاع وسهولة التطبيع والتعويد ، وجعلته هدفاً يسيراً للقناصين والنخاسين الذين يحفزهم الطمع ولايزعجهم عنه وازع من وشائج العطف أو زواجر الأخلاق .

ومضى العهد به على ذلك عصوراً طويلاً بعد عصور طوال إلى عصرنا هذا الذي نحن فيه . فقامت الثورات بعد الثورات باسم الإنسان وحقوقه ، واشتعلت في الكرة الأرضية حربان عالميتان في النصف الأول من هذا القرن العشرين ولا تزال الكلمة الباقية التي تقال لإنصافه وحماية حودته أكبر وألزم من الكلمة التي قالتها الحضارة الحديثة إلى الآن .

ففي هذه السنة التي نحن فيها (١٩٤٥) انعقد مؤتمر الجamaعات التي تشغل بالتبشير في الجزر البريطانية ووجه إلى العالم نداء شديداً أهاب فيه بأمم الحضارة إلى محو الفوارق القائمة بين البيض والسود في المستعمرات البريطانية ، وأعلنت لجنة الكنائس البريطانية موافقتها على قرار المؤتمر وهي ترجو معه « أن تنجز الأمم المتحالفة وعودها المتكررة بالتسوية بين الألوان والعناصر في فرص التعليم والحياة »

ولا تزال الفوارق الجنسية قائمة في الولايات المتحدة على تعدد

الدعوات فيها إلى المساواة والإعراض عن المزايم العنصرية التي روجها خصوم الدولة الأمريكية في الحرب العالمية الحاضرة ، ففي الولايات الجنوبية تقوم الفوارق بين البيض والسود بنصوص القوانين والأوامر الحكومية . ولا يباح للسود الجلوس مع البيض في المركبات العامة ولا النزول معهم في الخانات والفنادق . ولا تعلم أبنائهم في المدارس التي يتعلم فيها أبناء البيض . ولما صدر القانون الذي يحول الطفل الأسود حقاً في التعليم كحق الطفل الأبيض مع انفصال المدارس والجامعات - تبين من التنفيذ أن المساواة صورة لاحقيقة ، وأن التلميذ الأبيض يكلف الدولة في تسع ولايات من ولايات الجنوب نحو تسعة وخمسين ريالاً في السنة ولا تزيد كلفة التلميذ الأسود فيها على تسعة عشر ريالاً على الرغم من نص القانون . وتبين أن الفارق في ولاية ميسيسي يتجاوز ذلك كثيراً لأن الدولة تنفق على الطفل الأبيض ريالين وخمسين ريالاً ولا تزيد نفقة الطفل الأسود على سبعة ريالات ونصف ريال .

وقد ألغى في ولايات الشمال معظم القوانين التي تنص على التفرقة بين البيض والسود . ولكن هذه التفرقة ماتزال قائمة بحكم العرف والعادة على نحو لا يقل في صرامته عن صرامة القانون . فلا يرى الأسود نازلاً بفندق من الفنادق الكبيرة أو جالساً في مطعم من المطاعم الفاخرة ، وإن كان من أصحاب الثراء .

° ° °

وإبطاء الحضارة الغربية كل هذا الإبطاء في تقرير مبدأ الإنصاف - فضلاً عن تنفيذه - هو المقياس الصادق لسبق الشريعة الإسلامية في هذا المضمار الإنساني المتوعر المهجور من قديم الدهور . فإنها خلصت إلى

أدب الإنصاف والمساواة بين بني الإنسان منذ أربعة عشر قرناً بغير ما حافز من المصالح الاقتصادية أو من عادات العرف والأخلاق . بل خلصت إليه على كره من تلك المصالح وعلى رغم من تلك العادات . واجترأت على سلطان المادة الطاغية بسلطان الروح الرفيع . ولا يحسب الدين ديناً ما لم يكن له سلطان روحى يغلبه على طغيان المصالح والشهوات .

° ° °

وقد كان هذا السلطان الروحى هو السلطان الذى أذعن له السادة والعبيد عند ظهور الدعوة الإسلامية بين قبائل البادية العربية . واشتمل على بلال بن رباح صاحب هذه السيرة وهو مولى ضعيف غريب فى أرض الحجاز . كما اشتمل على أبى بكر والفاروق وعثمان بن عفان وهم سادات مكة وأقطاب قريش .

والذى يعيننا فى هذه المقدمة عن تاريخ الأجناس والجنس الأسود خاصة أن نجتمع الملتقى بينها وبين صاحب هذه السيرة بلال .

وليس الملتقى بينها بعسير .

فنحمل الصفات المتواترة التى وُصف بها بلال بترأى لنا أنه قريب الملتقى بخصائص الجنس الأسود التى أجملناها فى هذه الصفحات . ولا نحب أن نقول إن الذى يتصف بتلك الصفات لن يكون حتماً لازماً إلا من الجنس الأسود بخصائصه المعلومة . فلا يزال من الجائز جداً أن يكون بلال على تلك الصفة - فيما عدا اللون - ولا يكون من القبائل الإفريقية السوداء . ولكن الذى يقال ولا يتجاوز حد الصحة فى المقال أنه لو لم يكن كذلك لكان هذا من غرائب المصادفات . ولاداعية عندنا الآن لتقدير تلك المصادفات .

فلو لم يكن بلال أسود الإهاب لكانت في صفاته النفسية علامات
لاستغرب في الأجناس السوداء . لأنها من خصائصها المميّزة التي تبرز
فيها عند مراقبتها على الإجمال . ومنها حب الإيقاع الموسيقي وسليقة
الإيمان والتضحية والعناد والصبر على عذاب الجسد والوفاء لمن يستولى
منه على مكان الثقة والإعجاب .

ولكن الجنس الأسود لا يحتويه كله على ما يظهر من بعض صفاته
الجسدية فيما عدا لون السواد . فلم يوصف بالفطس ولا بغلظ الشفتين
ولابالشعر المتقبض المتصوف الذي خص به الزنوج . والذين يُشاهدون
على هذا التكوين بين أمم أفريقية الشرقية كثيرون حتى هذه الأيام .
وتحقيق تاريخهم يدل على امتزاج قديم بالأجناس السامية أو بالعربية منها
على التخصيص ، لأن رحلات العرب إلى سواحل أفريقية الشرقية قديمة
قبل الإسلام بزمان بعيد .

ومن علماء الأجناس من يربط بين جلة الأحباش وجلة العرب -
ولاسيما اليمنية - برباط وثيق . لأن عبور أهل اليمن إلى الحبشة وعبور
أهل الحبشة إلى اليمن ميسران معهودان من أقدم العصور .
وقد قيل في تاريخ بلال إنه من الموالى المولدين بمكة أو بالسراة
اليمنية . فأصدق ما يقال فيه إنه من سلالة زنجية سامية . وأنه على أقرب
ما يكون الزنج من خلائق العرب أو المستعربين .

العرب والأجناس

الممنا في فصل سابق بأقوال بعض العلماء في مسألة العنصر وفوارق الأجناس ، فأياً كان قول العلم في هذه العصبية العنصرية - أو الجنسية - فالقول الذي لا ريب فيه أن هناك شيئين مختلفين يدوران حول هذه العصبية ، ويلتبان في بعض الأحوال فتجب التفرقة بينهما : وهما المفاخرة الجنسية والعداوة الجنسية .

فقد تكون مفاخرة جنسية ولا عداوة .

وقد تكون عداوة جنسية ولا مفاخرة .

لأن المفاخرة طبيعة الجماعات حيث كانت من قديم أزمانها ، وقد توجد المفاخرة في الأمة الواحدة بين أهل الحضر وأهل القرى ، أو بين أبناء الشمال وأبناء الجنوب . وقد تتفاخر البطون من القبيلة الواحدة ولا تتعادي ، وقد تتعادي ولا تتفاخر ، وقد تتفاخر وتتعادي في آن . وهي من جنس واحد وقبيلة واحدة .

وعندنا في مصر مفاخرات كثيرة بين أبناء القاهرة وأبناء الإسكندرية ، وبين أبناء الصعيد وأبناء الريف ، ومفاخرات أخرى حول اللهجات والأذواق والأطعمة لا تتجاوز الفكاكة إلى الجد في عامة أوقاتها .

ومثلها متكرر يشاهد بين أبناء الأقاليم الإنجليزية أو الفرنسية أو الإيطالية أو الألمانية ، وحيثما تعددت الجماعات في صقع واحد ولو من أرومة واحدة .

وقد تتجاوز العناصر ألوف السنين ولا تتجاوز المنافسة بينها حدود المفاخرة اللسانية والمنافرة الكلامية . ولكنها تتجاوز المفاخرة العنصرية إلى العداة العنصرية كلما اندفعت إلى التنازع بينها على مغنم واحد لا يتأني

لإحداها بغير القضاء على الأخرى أو إذلالها . ويستحكم العداء بينها على الزمن إذا تداولت بينها الذحول والغارات فلا يهتمها المغنم يومئذ كما يهتمها النار والانتقام .

والعرب قد عاشت في جزيرتها بآمن من سطوة جيرانها إلا في أطراف الجزيرة ، حيث لا يبلغ النزاع بينهم وبين أولئك الجيران مبلغ الإبادة والاستئصال

وعاشوا ثمة وهم يحسون مكان جيرانهم ويحس جيرانهم مكانهم . فوجدت بينهم أسباب المفاخرة ولم توجد بينهم أسباب العداء اللدود . وأملى التاريخ على العرب وجه المفاخرة إملاء لا اختيار لهم فيه . فقد كان جيرانهم الفرس والروم والأحباش أصحاب ثروة ودولة ومعاش ومتاع ، وكانوا يعيرون جيرانهم العرب شظف العيش وسوء الطعام والكساء ، وكان العرب لا يجهلون حفظ هاتيك الدول من الجاه والترف وغزارة الأمواه والأزواد ، فإذا فاخروهم تركوا المفاخرة بطعام أمتع من طعامهم وكساء أنفس من كسائهم وحطام أوفر من حطامهم ، ورجعوا إلى فخرهم الذي يملكونه ولا يهابون المقالة فيه ، وهو فخر الفصاحة وعراقة الأحساب والأعراض .

فهؤلاء كلهم عند العرب أعاجم !

وهؤلاء كلهم عند العرب أخلاط لأحساب عندها للحسب العريق . وقد رضوا عن أنفسهم بهذا الفخر واستطاعوا المقالة فيه ، ولم ينشب بينهم وبين مفاخريهم من العناصر الأخرى قتال طويل يبيدون فيه أو يبادون . فوقفوا بالمفاخرة دون اللدد في الخصومة الدموية ، ونقلت عنهم وعن مفاخريهم أحاديث مستطرفات في هذا الصدد هي أقرب إلى

مساجلات الأدباء في موقف الدعابة منها إلى المنازعات التي تسفك فيها الدماء .

إن فخر الروم والفرس ببياض الألوان قال العرب : تلك وجوه مقشرة !

وإن فخر الروم والفرس بالحنوان الحافل فخر عليهم العرب بالجلود وبذل الموجود .

وساجلوا وسوجلوا في هذا المجال فأنبتوا بحق أنهم أصحاب فصاحة وأصحاب أعراق .

لكنهم لم يعرفوا قط عدااء العنصر أو عدااء الجنس كما عرفه البيض والحمرة في القارة الأمريكية ، أو كما عرفه الأوربيون والأصلاء في القارة الأسترالية ، أو كما عرفه السلافيون والتيوتون في أوربا الشرقية ، أو كما عرفه الإسرائيليون والكنعانيون أو عرفه المغاربة والأسبان في زمن من الأزمان . وإذا سمعت الزراية بالعبيد على لسان العربى فآخر شيء يتبادر إلى الذهن أنهم يقصدون عدااء الألوان والأجناس ، أو يخلصون اللون الأسود بذلك الازدراء أو ذلك العدااء .

فقد غلبت على بعض العرب أنفسهم «ممة» تضرب شديداً إلى السواد ، وكان من سادتهم من وُصف بحلكة اللون وشابه الزنج بالإهاب الخشن والبشرة الفاحمة .

فإذا قالوا «العبد» فهم لا يقصدون الزنجى ولا يخلصون سواد اللون بالمهانة ، ولكنهم يقصدون كل أسير لم يفك أساره وكل جليب يباع ويشترى في الأسواق ، ومنهم صفر الوجوه وبيض الوجوه .

ويقصدون على الأخص كل إنسان مجهول النسب لا ينتمى إلى أصل

من أصولهم المشهورة . . . إذ لم يكن في وسعهم أن يجهلوا مفخرة النسب وقد فرضتها عليهم معيشة البادية ومفاخرة الحاضرة ماثات السنين .
فلا يُزدرى العبد عندهم لأنه حالك اللون ولا لأنه من جنس يعادونه ويعاديهم ، ولكنه يزدرى لعله اجتماعية لا لعله عنصرية . وقد تزول هذه العلة من حيث لا تزول علل العناصر وعداوات الأجناس .
وجاء زمن على الدولة العربية بعد اتساعها وسطوتها كثر فيه جلب الزنوج السود من القارة الأفريقية إلى فرضات البحار المقاربة للعاصمة العربية ، وأكبرها البصرة في ذلك الحين . فشجريين الزنج والعرب يومئذ عداً يشبه عداً الأجناس في عصوره الحديثة والقديمة ، ونشبت فتنة الزنج بالبصرة على مثال الفتن الجنسية التي نشدها اليوم أو توصف لنا في التواريخ ، ولكنها كانت غاشية عابرة لسبب عابر ، فذهب أثرها بعد ذهابها بسنوات .

أما في غير تلك الآونة فقد كان الزنج قلة في بوادي الجزيرة وحواضرها ، وكان الرجل العربي يولد الجارية السوداء ويتبنى وليدها إذا نجب وصلحت حاله وظهرت منه الفروسية والفصاحة ، وربما كان له عبد يحمده خصاله فيعتقه ويستلحقه ويزوج به بنته أو ذات محرم منه ، ولا يمنعه أن يصنع ذلك عداً الجنس أو بغضاء اللون ، بل يمنعه عرف اجتماعي توجد له النظائر في كل عرف يدور حول الزواج ، ولو بين الأقرباء .
وعلينا أن نختصر كثيراً من نسبة كل عبد أسود يذكر في أيام العرب إلى الزنج أو أبناء حام كما يعرفون في علم الأجناس .

فلعله أن يكون سامياً عبر إلى أفريقية كما عبر الأثيوبيون ، ولعله أن يكون خلاسياً من الساميين والحاميين . ويغلب على الظن أن بلالا -

صاحب السيرة في هذا الكتاب - كان حامياً حبشياً ولم يكن زنجياً خالصاً من السود ، لأن العرب يحسنون وصف الملامح التي تميز الأجناس والسلالات ، ولم يذكروا من أوصاف بلال الفطس ولا الشعر الصوفي « المفلقل » اللذين يميزان معاً سلالة حام .

وقد كان بلال من أضنك العبيد حالاً قبل الإسلام ، وكانت حال العبيد هي السوأى بين طبقات المجتمع العربي في الجاهلية . ظلماً للضعيف لا عداوة للجنس أو كراهة للسواد ، فقد كان شأن العبيد كشأن كل صعلوك وضع النسب قليل العضد غير محسوب له حساب في شريعة الثأر والدية ، وكان العبيد أسوأ حالاً من وضعاء النسب لأنهم لا ينسبون إلى أحد معروف ، ولا يردع الظالم عن ظلمهم شرع ولا عرف ولا عقيدة . فكانوا ضحايا الظلم والتفرقة في المنازل والأقدار ، وكان خلاصهم كله في عقيدة تنكر الظلم لأنه قسوة كما تنكره لأنه ينقض شريعة المساواة . وقد تكفل الإسلام بهذا الخلاص من جانبيه ، لأنه ينكر ظلم القسوة ، وينكر ظلم الإجحاف والمحاباة .
فحق له أن يلبي دعوته ، وأن يدعو إليه .

الرق في الإسلام

كان الإيمان بالروح أول خطوة صحيحة في طريق الحرية الإنسانية أو طريق الحكومة الديمقراطية كما نسميها اليوم .
لأن الإيمان بالروح يعلم الإنسان التبعة وإن « كل نفس بما كسبت رهينة »^(١) وهذا هو أساس التكاليف والحقوق .

ولأنه يوحى إلى العقل عقيدة المساواة بين جميع الناس أمام الله وأمام شريعة الله .

ولو جاء الإيمان بالروح سابقاً للرق لامتنع الاعتراف به في الأديان التي تأمر بهذه العقيدة ، لأن بيع الإنسان بيع السلع الصماء لا يوافق الإيمان بروح يتساوى فيها السادة والعبيد ، فضلاً عن الإيمان بتفضيل روح العبد الصالح على روح السيد الذي يعوزه الصلاح .

ولكن الأديان « الروحية » جاءت بعد ظهور الرق في المجتمع الإنساني بآلاف السنين ، وكان الرق في تلك الأحقاب الطوال قد امتزج بنظام الثروة ونظام المعاملات فأصبح اقتلاعه دفعة واحدة من أعسر الأمور ، ولم تكن أذواق الناس وأخلاقهم في العصور القديمة قد بلغت من اللطف والتهذب مبلغ الترفع عن تسخير الآدميين كما يسخر الحيوان أو كما تسخر الآلة الصماء . فدارت الأديان « الروحية » حول المشكلة ولم تقابلها وجهاً لوجه في معظم الأحوال ، ولم تكن للعبيد أنفسهم أنفة تعزف بهم عن هذه المتزلة التي فرضتها عليهم ضرورات الزمان ، ومن كانت لهم الأنفة لم تكن لهم القدرة على التمرد والعصيان وتبديل المصالح والآداب .

ومع هذا لم يكن للمصلحين الدينيين بدءاً من التوفيق بين عقيدة الروح وإباحة بيع الإنسان وشرائه كما تباع الآلات .

فكان من توفيقاتهم في هذا الباب أن العبد عبد يحسده حر بروحه أمام الله ، وأنه في هذه الدنيا عبد وفي الآخرة سيد قد يرتفع إلى مراتب القديسين .

وكتب القديس بولس إلى أهل (أفسس) رسالة أوصى فيها العبيد بالإخلاص في الولاء لساداتهم كما يخلصون في الولاء للسيد المسيح ، وكان الحواري بطرس يأمر العبيد بهذا الأمر ويلزمهم الخشية من ساداتهم كأنها أدب من آداب الدين الصحيح ، وجاءت الكنيسة فأقرت نظام الرق واعتمدته أحبار رومة في المناشير والعظات ، وأيده توماس الأكويني كبير فلاسفة النساك والقسيسين وتلميذ أرسطو الذي اشتهر بالعلم والتقوى في القرن الثالث عشر للمسيح . فاستند إلى أقوال رسل المسيحية كما استند إلى أقوال أرسطو في كتابه عن السياسة ، لأن أرسطو اعتبر الأرقاء في حكم الآلات التي تراد لعمل من الأعمال ولم يرفى نظام الرق شيئاً يعاب ، فإدام في الناس من يعجز عن كفالة نفسه فعليه أن يعيش في كفالة سواه ، وتبعه تلميذه الناسك لأن الزهد في الحياة يجعل القناعة بأبجس المنازل أمراً سائغاً لاغضاضة فيه ، بل لعله من المأثور المحمود عند من يرفضون الحياة . . . وقد واجه الرق بهذا المزاج فحسبه من الحرمان الذي لا يناقض الخطة المثلى في آداب الديانة وفضائل لسلوك ، وسهل عليه أن يجد للرق مصداقاً من أسر الضرورات وتقيد بعض الحركات ببعض في نواميس الطبيعة وخصائص التكوين .

ومن أعجب العجب أن البلاد التي شاع فيها تحريم قتل الحيوان حتى ما يؤذى منه ولا يفيد - قد بلغت عقائدها القسوة القصوى في معاملة الأرقاء ، فإن أناساً من براهمة الهند كانوا يضربون الذلة على العبيد

المعروفين باسم السودرا ، لأنهم خلقوا من أسفل أعضاء الآله فلا تبرحهم وصمة الذل ما لبسوا ثوب الحياة ، فأيسر ما يعاقب به الرقيق على إغضاب سادته أن يسلم لسانه أو يقتل بعد التثيل به على مشهد من الناس .

وكانت الحضارة تلتطف من هذه القسوة بعض التلطيف فتجرى العادة أحياناً في الأمم المتحضرة بالشفقة على العبيد والجواري وتخويلهم بعض حقوق المساواة . فكان المصريون الأقدمون يميزون معاملة الإماء كما تعامل الزوجات الخرائر ، ويحكمون بالقتل على من يقتل الرقيق في غير جريرة ، ويلزمون الرجل في موقف الحساب بعد الموت أن يبرئ ذمته من إيذاء العبيد والإساءة إليهم ، ويجعلون هذا الإبراء جوازاً لا مناص منه إلى حظيرة الأرياب .

ومن مصر أخذ العبرانيون تحريم القسوة على العبيد والأجراء لأنهم كثيراً ما كانوا يؤدون في مصر عمل الأجراء إن لم يكن عمل العبيد . فجنحت بهم الرغبة والقدوة إلى إنصاف الأرقاء والأحلاس ، وأنكروا الإرهاق كما أنكروا الضرب والإيذاء في معاملة الأجراء .

وقال هيروdot إن الفرس في زمانه كانوا يمنعون عقاب العبد على الهفوة الأولى ، ولكنهم يبيحون السيد أن يقتل عبده أو يعذبه إذا أذنب مرة بعد أخرى ، وكانت شريعة الفرس أرفق بالعبد على الجملة من شرائع اليونان والرومان ، لأنها كانت ترخص له في الراحة وتكره العدوان عليه ، وربما سرى إليهم أدب الشريعة هذا من عادة التسرى واقتناء الزوجات من الإماء . ووافق ذلك معيشة الحضارة في المدن الكبيرة وقلة الحاجة إلى إرهاق الأرقاء لتحصيل ضرورات المعيشة ، ولعلمهم قد

استفادوا أيضاً من سنن العبرانيين في معاملة الرقيق . لطول العشرة بين اليهود وبين شعوب النهرين .

ولم تسلم أمة قط من إقرار نظام الرق وازدراء العبيد على اختلاف عناصر الأمم وأجناسها .

فما قيل عن فضل أم الشمال الأوربية على أم الجنوب كافة في هذه المسألة خطأ ظاهر في البحث عن حقائق الأسباب ، لأن أم الشمال لم تخل من نظام الرق ، مما في الأخلاق أو تفردا بالصفات الإنسانية التي تدعى للشمالين في الزمن الأخير . ولكنها خلت من نظام الرق لأن اقتناء الأرقاء في تلك البلاد الباردة يكلفها أكثر مما يحيط عنها ، فهي فضيلة الضرورات لا فضيلة الأخلاق ، وهي مزية البقاع لا مزية عناصر الشمال .

وما زال الرقيق محروماً من المساواة الإنسانية إلى هذا اليوم في الأمم الأوربية والأمريكية . وكانت القوانين إلى القرن الثامن عشر تجيز قتل العبيد في المستعمرات إذا هربوا من الأسر أو أغلظوا لمواليهم في الكلام ، ولم يكن على السيد الذي يقتل مولاه إرقاهاً أو تعذيباً عقاباً منصوص عليه .

تلك كانت حالة الرقيق جملةً في القرون الأولى وفي القرون الحديثة ، وقبل ظهور الأديان « الروحية » وبعد ظهور تلك الأديان .

ومن الأسباب التي تذكر لتحسين أحوال الأرقاء ومنع الاتجار بهم في العصر الحديث أن اقتناء العبيد كان ييسر لبعض البلاد أن تنافس البلاد التي تستخدم العمال الأحرار في الصناعة وتبذل لهم أجراً لا يطمع العبيد السود في مثله . وكان اقتناء العبيد يضر أولئك العمال الأحرار في الوقت

الذى عرفوا فيه حقوقهم ونهضوا للمطالبة بها ، وساعدهم على المطالبة بها أصحاب الأموال الذين لا يستفيدون من تسخير الأرقاء .

ومهما يكن الرأى فى حقيقة هذه الأسباب فهى مما يدخل فى التقدير عند بيان فضل الإسلام وسبقه للحضارة الحديثة إلى أرفع الآداب وأكرمها فى مسألة الرق ومعاملة الأرقاء .

فلم تكن معاملة الأرقاء على الوجه الذى أمر به الإسلام مصلحة اقتصادية على فرض من هذه الفروض ، بل ربما كان من المصلحة إبقاء الرق على نظامه الأول ليفرغ الأرقاء لأعمال المعيشة والسخرة ويفرغ الأحرار لأعمال الجهاد والرئاسة .

كذلك لا يقال إن الإسلام نهى النظام القائم فى المجتمعات القديمة كما نهيتها الأديان الروحية فدارت حول المشكلة ولم تقابلها وجهاً لوجه فى معظم الأحوال ، ولم تأخذ بأيدي العبيد إلا بما كانت تفرضه عليهم من الطاعة وتزجيه إليهم من الغزاء المنظور فى الدار الآخرة .

فلا يقال إن الإسلام قد منع رق المسلم وقصر الرق على الأسرى وأوجب لهم حسن المعاملة لأنه كان ديناً يؤمن بالروح ، ولا توافق بين الإيمان بالروح وبين بيع الآدميين كما يباع الحيوان . . . فإن الواقع أن أدياناً « روحية » كثيرة قد وفقت بين الأمرين على نحو من التوفيق . ولا يقال إن الإسلام قد جاء بآداب الرفق بالرقيق بعد ذهاب الحاجة إلى تسخير الأرقاء وتبدل الأحوال الاقتصادية فى مجتمعات المشرق والمغرب . . . فإن الواقع أن هذه الحاجة ظلت قائمة فى البلاد الشرقية والغربية إلى زمن يذكره الأحياء . ولا تزال قائمة حتى اليوم فى بعض الأنحاء .

فإنما هو إذن فضل خالص من علل المادة ودواعي الثروة الاجتماعية .
وإنما هو نصر صريح في عالم الروح بحسب للدين الإسلامى وحده بين سائر
الأديان .

* * *

كان في وسع الدعوة الإسلامية أن تمر بنظام الرق في العالم العربى وفي
العالم بأسره لم تتركه حيث كان فلا يحسب عليها ذلك - في حينها -
إغضاء معيها تسأل عنه ، لأن مسألة الرق لم تبلغ يومئذ أن تكون من
المسائل الناطقة التى يؤل السكوت عنها بالإغضاء أو الإدارة .

ومن المحقق أن الدعوة الإسلامية لم تكن تخسر شيئاً لو أنها أهملت
مسألة الرق في أول ظهورها ! لأن المسلمين على نقيض ذلك كانوا
يتجشمون خسارة لا يطبقونها في إعتاق العبيد والإماء . كلما ساءت حالهم
عند سادتهم بدخولهم في دين الإسلام . وكان أبو قحافة يمثل رأى
الخصيف وهو يأخذ على ابنه الصديق بذل المال الكثير في سبيل رهط من
الضعاف المهازبل يثقلون كاهله ولا يغنون عنه أقل غناء .

فلم يكن ثمة من باعث إلى النظر في إنصاف الأرقاء وهدم نظام الرق
القديم غير باعث الفضيلة المثالية التى تعنى بطلب الكمال ولا تحفل
بالمصلحة المادية أقل احتفال .

وقد تبدل نظام الرق على يد الإسلام في أوسع نطاق للتبديل أو على
أعمق أساس بينى عليه كل تبديل في أمثال هذه الأنظمة الاجتماعية ،
لأنه عمد إلى أساس التفرقة بين الأجناس والأقوام فحاه أو غنى عليه .
وعلم الناس أن المؤمنين إخوة وأنه لا فضل لمسلم على مسلم بغير التقوى ،
وألقي إليهم في أحاديث النبي القدسية أن « الجنة لمن أطاعنى ولو كان عبداً
حبشياً والنار لمن عصانى ولو كان شريفاً قرشياً » أو كما قال .

وحصر الرق مع هذا في سبب واحد من أسباب الاسترقاق . وهو الأسرى في ميادين الحروب . فلا يملك الرجل أو المرأة بالنخاسة والاختطاف . ولا يعد من العبيد إلا من وقع أسيراً في ميدان القتال إلى أن يفدى نفسه أو يفديه من يفديه .

وقد مضت مئات السنين بعد ظهور الدعوة الإسلامية فبطل نظام الاسترقاق أو بطلت الحاجة إليه . ولا يزال الأسر مشروعاً والفداء واجباً ولو بتبادل الأسرى أو بشرط من الشروط التي تقوم مقام الفداء . ولا يقع في العقل نظام غير هذا النظام ما بقيت الحروب وبقى الأسر والاستتار مقبولين في شرعة المتحاربين .

ولم تنته عناية الإسلام بمسألة الرق بتضييق نطاقه وحصره في هذا السبب الوحيد من أسباب الاسترقاق . بل أمر المسلمين بقبول الفداء أو المن وهو الإعتاق بغير فداء : « فإمّا من بعدُ وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » (١) .

وأوجب على المسلم أن يقبل من الأسير تنجيم فديته حتى يستوفيها على سنة الرفق والسماحة : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت إيمانكم فكاوبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم . . . » (٢) . وقد جعل الإعتاق حسنة تكفر عن كثير من السيئات . وفرضها على الذين يخالفون بعض أحكام الدين كما فرض الصدقات وإطعام المساكين . وجعل وصية الرفق بهم مقرونة بوصية الرفق بالآباء والأقربين : « . . . وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل . . . » (٣) .

(١) سورة محمد ٤ (٢) النور ٢٣ (٣) النساء ٣٦

وكانت وصية النبي للمسلمين قبيل وفاته « الصلاة وما ملكت أيمانكم » وتكررت منه عليه السلام أحاديثه في هذا المعنى حتى قال في بعض تلك الأحاديث « لقد أوصاني حبيبي جبريل بالرفق بالرقيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم » .

وتجاوز الإشفاق على الأرقاء من سوء المعاملة إلى الإشفاق عليهم من الكلمة الجارحة فكان عليه السلام يقول : « لا يقل أحدكم عبدي وأمتي . وليقل فتاي وفتاتي وغلامي » .

أما ضرب الرقيق بغير تأديب محتمل فهو ذنب كفارته العتق . أو كما قال عليه السلام : « من لطم مملوكه فكفارته عتقه » . فإذا قتله فهو يقتل به في قول أشهر الفقهاء .

وقد فضل الإسلام الزواج بالأمة المؤمنة على الزواج بالحرّة المشركة . وأوجب عتق الأمة متى ولدت للرجل واعترف بأبنائها .

وقد أعتق النبي عليه السلام مملوكه زيداً وزوجه بعقيلة حرة من عقيلات بيته . وتبناه وأقام ابنه أسامة من بعده والياً على جيش الشام وهو دون العشرين . وفي الجيش نخبة من أجلاء الصحابة منهم عمر بن الخطاب .

وكانت معاملة النبي للأرقاء في ملك يده وفي ملك غيره تفوق سماحة هذه الرصايا على فرط ما فيها من السماحة بالقياس إلى آداب ذلك العصر ، وإلى آداب جميع العصور ، فكان يؤاكلهم ويلبى دعوتهم إلى الطعام ويقول للمسلمين ! « هم إخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم » .

وأكرم ما قال في هذا الباب - وكله كريم - « إنما أنا عبد آكل
كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » .

• • •

هذه الوصايا والمعاملات كانت كلها من فيض الآداب العلوية الرفيعة
ولم يكن شيء منها قط من إملاء الضرورات الاجتماعية أو المصالح
الاقتصادية . بل هي ولاشك قد تقررت على الرغم من ضرورات
الاجتماع ومصالح الاقتصاد التي كانت غالبية في تلك الآونة على الجزيرة
العربية وعلى غيرها من أرجاء العالم المعمور .

وهي لم تتقرر - بالبداية - دفعة واحدة في مستهل الدعوة الإسلامية
ولا تقررت كلها أو بعضها قبل إسلام بلال وزملائه من الموالى والإماء .
فقد تابعت الأحكام الإسلامية في معاملة الرقيق على أثر قيام الحرب بين
المسلمين والمشركين . وبعد ظهور حالة الأسرى والمستأسرين في معارك
الفريقين .

فن الخطأ أن يقال إن أحكام الرقيق هي التي جلبت إلى الإسلام من
دخل فيه من الموالى والإماء . أو إنهم سيقوا إلى الدخول فيه طلباً لراحة
الجسد وهرباً من مظالم السادة ومتاعب التسخير .

إن يكن هناك أثر للمعاملة الحسنة في إقبال بلال وزملائه على
الإسلام فهو على التحقيق أثر المثال الرفيع الذي تمثلوه في معاملة النبي
عليه السلام لصحبه ومواليه ولكل ضعيف منهم . إليه . ولم يكن سراً
مجهولاً بينهم أن النبي عليه السلام أحسن إلى مولاه زيد بن حارثة فأنساه
أباه وذويه . وجاءه هؤلاء يفتدونه ويعرضون عليه الحرية والعودة إلى

أحضان أهله فآثر صحبة النبي على نعمة الحرية بين معشره الأولين وفي ظلال وطنه الذي فارقه مكرهاً منذ سنين .

فهذا المثال الرفيع قد كان له ولا ريب أثره البالغ في تحبيب الإسلام ونبي الإسلام إلى الأرقاء وغير الأرقاء .

ولكن طلب الإسلام عند أولئك الأرقاء لم يكن طلباً لراحة الجسد ولا مفاضلة بين سيد وسيد أو معيشة ومعيشة .

فإننا لا نعرف في تواريخ العقائد الدينية أن أحداً يقبل على الدين مساومة على الراحة ورفاهة العيش . ولم يكن طلاب الراحة ورفاهة العيش قط أعوان عقيدة ناشئة في عهدهما الأول وهي مقدمة على المغامرة والجهاد تتطلب الضحايا وتفرض على الأتباع ألوان الفداء .

وفي حالة بلال وزملائه خاصة لم يكن الإسلام راحة لهم ولا انتقالاً من جانب الخطر إلى جانب السلامة والأمان . بل كان على نقبض ذلك انتقالاً من جانب السلامة والأمان إلى جانب الخطر الذي لا يدفعه عنهم دافع . لأن العربي يحميه من الضم آله وعشيرته ولا يبلغ الأمر مبلغ الخطر على حياته وماله إلا في قتال صريح بعد يأس من الوفاق . ولا حاجة إلى قتال صريح أو غير صريح لا هدار دم العبد المملوك المرهون بمشيئة مولاه . وأهون من ذلك عند مولاه تعذيبه وإعناته وحرمانه الراحة وضرورات الحياة .

كذلك لم يكن طلب الإسلام عند هؤلاء الأرقاء طلباً للنقطة من رق ثقيل إلى رق خفيف ، أو من سيد قاس إلى سيد رحيم . لأن الإسلام في مبدأ أمره لم يكن ليخرجهم من ربة الأسر عند سادتهم الأقوياء ، ولم

يَكُن العتق جزاء موعوداً لمن يغضب سيده المشرك ويرضى النبي عليه السلام بالدخول في دينه . فإنما جاء العتق مصادقة واتفاقاً بعد تشديد العذاب على أولئك الضعفاء المساكين ، وقد كان العذاب يقيناً لاشك فيه ، ولم تكن النجاة الا وعداً مأمولاً لم تبد تباشيره للعيان .

فمن الخطأ كما أسلفنا أن يعلل إيمان العبيد والإماء بأحكام الإسلام في معاملة الأرقاء ، أو بالطمع في الراحة والمساومة على حسن المعاملة ، فإنما عرفت تلك الأحكام بعد ابتداء الدعوة الإسلامية بزمان طويل ، وإنما كان العناء والخطر أول ما يصيب العبد الذي يصبأ عن دين مولاه ، وكانت الراحة آخر ما يرجوه من أمل بعيد ، إن سلمت له الحياة .

وما زالت العقائد أكرم على ضمير الإنسان من هذه المساومات التي تلازم الأسواق وتعرض في صفقات البيع والشراء ، وما زال قلق النفس هو الباعث لها وطمأنينة النفس هي البقية منها ، وتهون في سبيلها بعد ذلك مطالب العيش وراحة الأجساد .

وآية ذلك أنه لم يؤمن إنسان قط لغنيمة تخصه ولا تعم سواه . إنه ليساوم في سوق التجارة على الغنيمة التي تخصه دون غيره ، ولكنه إذا آمن بعقيدة من العقائد التي تتناول الحياة والموت فلا بد من غاية تعمه وتعم غيره على السواء ، ولا بد من الأمل العام الذي يتخطى مصالح الفرد ومساومات الآحاد .

وبلال حين آمن بالإسلام قد آمن حقاً بالدين الذي ينصف العبيد ، ولكنه قد آمن به على السنة التي ترضى الكرامة الإنسانية لا على سنة المساومة والمصافقة ، أوهو قد آمن به إنساناً كما آمن به السادة الأحرار القادرون على شراء العبيد والإماء .

وأقل ما يقال في تعليل إسلامه إنه إعجاب نفس طيبة بنفس عظيمة ، وأنه إثارة للخير الكبير على الخير الصغير ، وأنه استقامة طبع تهتدى إلى الصراط المستقيم . وأنه شوق إلى الحق الذى يريح النفوس وليس بشوق إلى الرفاهة التى تريح الأجساد .

ومما لا شك فيه أن إرضاء الكرامة بالمساواة بين جميع المسلمين كان أحب إلى أولئك العبيد والإماء من كل راحة يرجونها بعد الدخول فى الدين الجديد ، أيًا ما كانت الثقة بتحقيق ذلك الرجاء . فى أجل قريب أو بعيد .

وقد غبرت القرون على وصايا الإسلام بالرفق ، وعمل بها من المسلمين من عمل وخالفها من خالف ، واحتال عليها من احتال ، على عهد الناس بجميع الأوامر أو النواهي التى تشرعها العقائد والأديان . ولكنها ، سواء روعيت أو خولفت . قد كانت كسباً عملياً له أثر من النفع الواقع فى تاريخ بنى الإنسان ، وقد بنى لها هذا الأثر إلى أن بطل الأسر وبطل الرق بشتى ذرائعه ودواعيه ، وارتفعت للحرية الفردية والحرية القومية صيحة لم ترتفع لها قط فى زمن من الأزمان .

فبعد وصايا الإسلام بألف ومائتى عام ، وفى العصر الذى راحت فيه أوروبا تنكر الرق وراح فيه اليونان يطلبون الاستقلال نزل بمصر فوج من الأسرى اليونان يزيدون على خمسة آلاف وخمسمائة ، ووزعهم الولاة على بيوت السراة وذوى الثراء فى القاهرة والإسكندرية ، ثم عقد الصلح وقضت شروطه برد الأسرى إلى بلادهم واعتاق من بيع منهم بمال الحكومة المصرية لا بمال الأسير أو بمال ذويه ، فأثروا البقاء جميعاً فى

البيوت التي نزلوا بها نزول العبيد ، ولم يقبل منهم العتق غير أربعمائة أو دون ذلك ، كما جاء في بيان المندوب الإنجليزي الذي نيط به تنفيذ تلك الشروط .

ومهما يقل القائلون في تعليل ذلك الإيثار ، فالأمر الذي لا ينكر في هذا المقام ولا ينسى أن أولئك الجند الأوربيين الذين أسروا وهم يعلنون قضية الاستقلال ، ما كانوا ليحمدوا البقاء عند سادتهم المسلمين لو كانت وصايا الإسلام بالأرقاء قد ذهبت ذهاب الكلام في الهواء .
فالعقائد الكبرى قد تتكلم بلسان الفضائل المثالية في نشأتها الأولى ، وقد ينشدها المؤمنون بها حباً للمثال الأعلى وطموحاً إلى الكمال ، ولكنها لا تلبث بعد ذلك أن توزن بالميزان وتشخص للعيان .

نشأة بلال

اتفقت الأقوال على أن بلالا كان من أبناء الحبشة المولدين ،
وجاء في وصفه أنه رضى الله عنه كان « آدم شديد الأدمة نحيفاً طويلاً
أجناً - أى فيه انحناء - كثير الشعر خفيف العارضين »
وهى أوصاف تعهد في سلالة المولدين من السود والساميين ، وقد
كانوا كثيرين بين الحبشة واليمن من قديم الزمن ، فليست أوصافه المتفق
عليها أوصاف الزنج ولا أوصاف أبناء سام ، وسواده وكثرة شعر رأسه مع
خلوصه من فطس الأنف وتقبض الشعر تدل على أنه مولد من
السلالتين . وقد زعم بعضهم أنه كان ينطق السين شيئاً على عادة السود ،
فنتى الثقات هذا الزعم وأكد نفيهم أنه كان يقيم الأذان وفيه السين
والصاد .

ويختلف في مولده فيقال إنه ولد في مكة ويقال إنه ولد في السراة ،
وربما رجح القول الأخير لأن السراة أقرب إلى اليمن والحبشة ، ولأن بلالا
رضى الله عنه رجع إليها حين فكر في الزواج .
وأرجح الأقوال في سنة مولده أنه ولد قبل الهجرة بنحو ثلاث
وأربعين سنة ، ثم تختلف الأقوال حتى يبلغ التفاوت بينها زهاء عشر
سنين .

وأبوه وأمه معروفان ؟ أبوه يدعى رباحاً وأمه تدعى حمامة ، وكان ينز
بأبن السوداء إذا غضب منه غاضب ، ولعل أمه كانت من إماء السراة أو
إماء مكة ، إذا صح أنه لم يولد بالسراة .

وبحسب بعض الإفرنج الذين كتبوا عنه أنه تلقى من أمه كلمات
التوحيد كما كان يفهمه المتدينون والمتدبنات بالمسيحية من أبناء الحبشة .
وأنه من ثم أسرع إلى تلبية الدعوة المحمدية حين جهر النبي عليه السلام

برسالة التوحيد ، وهو حسابان جائز ولكنه بعيد ، لأن الأحباش في ذلك الزمن إنما كانوا يفهمون المسيحية على نحو أقرب إلى الوثنية ، ولا يرحبون برسالة التوحيد المحمدية ذلك الترحيب .

ويذكر لبلال أخ يسمى خالداً ويكنى بأبي رويحة ، والأغلب في الروايات المختلفة أنه كان أخاه في الإسلام على سنة المؤاخاة بين الصحابة التي سنها عليه السلام ، . وقيل إن له أختاً تسمى غفرة هي مولاة عمر بن عبد الله مولى غفرة المحدث المصري ، ولا خبر عنها غير ذلك فيما روى من أخباره .

وكانت نشأة بلال بمكة في بني جمح من بطون قريش المشهورة . وفي بني جمح هؤلاء نشأ أبو محذورة أحد الثلاثة المختارين من مؤذني النبي ﷺ ، وهم بلال وأبو محذورة وعمر بن أم كلثوم . . ولا يُدرى أمن محض المصادفة أن كانت نشأة اثنين من الثلاثة في بني جمح أم كان هؤلاء القوم بعض عناية بالصوت والغناء ، وإنما المعروف عن القوم أنهم كانوا أصحاب الأزلام والأيسار في الجاهلية وأنهم كانوا من حزب عبد الدار حين شجر الخلف بينه وبين عبد مناف ، فكان بينهم وبين بني عبد مناف خلاف قديم .

وإذا كان لنشأة بلال بين هؤلاء القوم أثر مقدور في بغضه لعبادة الجاهلية وإقباله على الإسلام فذلك هو اطلاعهم بين القوم على أسرار الأزلام والأيسار وما يلزمها أحياناً من النش والتلبيس ، وأن القوم فيهم بحفاة عن الرحمة والترعة الروحية باعدت بينهم وبين خلائق عبد مناف - جد النبي عليه السلام - منذ القطيعة الأولى بين الأحزاب القرشية ، وخلق بأمثال هؤلاء ألا يالفهم الضعفاء .

ولم يعلم على التحقيق من كانوا سادة بلال وأبيه من بني جمح هؤلاء . ف قيل إنه كان عند عقيلة من عقائلهم . وقيل إنه كان عند أبناء لأبي جهل ، وقيل إنه كان عند أمية بن خلف وبعض ولده . واتفقت الأقوال على أن الصديق رضى الله عنه هو الذى استنقذه من أيديهم بعد ما عاينه من تعذيبهم إياه لدخوله فى الاسلام . فاشتراه بخمس أواق من الذهب وقيل بسبع أواق وقيل بتسع أواق . وزعموا أن سيده أراد أن ينقص الصفقة على الصديق بعد شرائه فقال له : لو أبيت إلا أوقية لبعناك ! فقال له الصديق : لو أبيت إلا مائة لاشرته . . ! ! ويزعم بعض الرواة أن الصديق استبدله بغلام له جلد من عبيده ، وهى رواية يشك فيها كثيراً . لأن الصديق لم يكن ليسلم المشركين رجلاً من أتباعه ليستنقذه رجلاً غيره ، وأدنى من ذلك وأشبه بخلائق الصديق رضى الله عنه أنه اشتراه بأمر النبي عليه السلام ، وأنه عليه السلام عرض عليه الشركة فيه ليخفف عنه عبء نفقته ونفقة المستضعفين من أمثاله ، فقال له : لقد أعتقته يا رسول الله . وعمل بعد ذلك خازناً له ثم خازناً للنبي ومؤذنًا للمسلمين بعد إقامة الأذان .

واستراح بلال بعد عتقه من إيذاء السادة للعبيد ولكنه لم يسترح ولا استراح غيره من إيذاء الأحرار للأحرار ولا سبب المستضعفين الذين لا تحميمهم العصبية ولا الخوف من الثأر . فقد كان المشركون يتعقبون المسلمين بكل ما استطاعوا من عنف ومساءة ، واشتدوا فى ذلك حتى هموا بقتل النبي عليه السلام وجمعوا كلمة القبائل على هذه النية ليفرقوا دمه الزكى بينها فلا تقوى هاشم وحدها على محاربتها أو تصمد لعداوتها . فأشفق النبي الكريم على صحبه وأذن لهم فى الهجرة قبله ، وكان بلال ممن هاجر إلى

المدينة على إثثار منه للبقاء في مكة . فلما وصل النبي عليه السلام وصاحبه الصديق إلى المدينة كانت « أوباً أرض الله من الحمى » ولكنها أرحم بهم من جيرة المشركين في مكة . ونزل الصديق وعامر بن فهيرة وبلال في بيت واحد فأصيبوا جميعاً بالحمى - ولعلها الملائيا كما رجحنا في غير هذا الكتاب - فكان بلال إذا تركته الحمى اضطجع بفناء البيت ثم رفع عقيرته يترمم بصوته الجمهورى قائلا :

ألا ليت شعري هل أبين ليلة
بفخ وحولي إذخر وجليل
وهل أردن يوماً مياه مجنة

وهل يبدون لي شامة وطفيل
وهي مواضع ومنابت بمكة وجوارها تشوقها بلال في العلة لما ابتعد عنها ، وليس أعجب في الوفاء لموطن الصبا من هذا الوفاء ، لأن بلالاً قد لقي عند تلك المواطن والمنابت قسوة في جاهليته وتعذيباً في إسلامه وخطراً على حياته ، ولكنه عاش فيها مع الصبا الأول وعاش فيها مع الإيمان الأول ، فهي حبيبة إليه أثيرة لديه ، وإن لقي الحفاوة والسلامة في الهجرة منها إلى غيرها .

وقد لزم بلال النبي والصديق بالمدينة ومكة وسائر المغازي والأسفار بعد ذلك . وكان لمسجد المدينة الذي اشترك النبي عليه السلام في بنائه حظُّ الأذان الأول فكان لبلال حظ السبق بهذا الأذان . ولم يزل له حظ التقدم على سائر المؤذنين في حضرة النبي حتى قبض عليه السلام ، وميز بالتقدم عليهم لتقدمه في الإسلام ولجهازة صوته وحسن أدائه ، وإن كان تقدمه في الإسلام هو أرجح المزيتين التي استحق بها التفضيل والتكريم .

كان إذا فرغ من الأذان وأراد أن يعلم النبي عليه السلام أنه قد أذن وقف على الباب وقال : حى على الصلاة ! حى على الفلاح ! الصلاة يارسول الله . فإذا خرج رسول الله فرآه بلال ابتدأ في الإقامة .

وقيل في خصائص أذانه إنه كان يؤذن حين يدحض الشمس ويؤخر الإقامة قليلا . أو ربما أخرها قليلا ، ولكن لا يخرج في الأذان عن الوقت . وربما ترمم ببعض الشعر وهو صاعد للأذان رثاء لحاله وطلباً للتوبة والرحمة من الله . ومن ذاك أنه سُمع وهو يقول :

ما لبلال ثكلته أمه وابتل من نضح دم جبينه

وكان من عمل بلال في صحبة النبي عليه السلام قبل بناء المصلى أنه كان يحمل العترة بين يديه ويركزها حيث تقام الصلاة ، وكانت هذه العترة إحدى عترات ثلاث أهداها نجاشي الحبشة إلى النبي عليه السلام ، فأمسك واحدة لنفسه وأعطى كلا من علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب واحدة ، واختص بلالا بحمل العترة بين يديه أيام حياته ، فكان يحملها في العيدين وفي أيام الاستسقاء ويركزها حيث تقام الصلاة ، وقيل إنه كان يمشى بها بين يدي الصديق في خلافته ثم جعل سعد القرظ يمشى بها بين يدي عمر وعثمان بوصاة من بلال ، وهي العترة التي احتفظ بها الولاة يمشى بها بين أيديهم بعد عهد الخلفاء .

وقد آخى النبي في المدينة بين المهاجرين والأنصار ، فأخى بين بلال وخالد أبي رويحة الحثعمي ، وقيل بل بينه وبين أبي عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، أو بين أبي عبيدة بن الجراح ، وهو على ما يظهر لبس في الأسماء ، والأول هو الأرجح لبقاء الصلة بين بلال وأبي رويحة إلى أن فرقت بينهما الوفاة .

ويبدو من أحاديث النبي عليه السلام لبلال أنه كان يصطفيه لأنه أهل لاصطفاء التربية والتعهد بالنصيحة والتعليم ، فكان يقول له : يا بلال ! أفضل عمل المؤمن الجهاد في سبيل الله ، وكان يقول له : عش فقيراً يا بلال ومت مع الفقراء ، وربما عهد إليه في تفريق ما يفضل من المال عنده وقال له : انظر حتى تريحني منه . فبرى بلال القدوة في سيده ونبيه فإذا هو من خيرة المقتدين ، ويظل على هذه القدوة حتى فارق الحياة .

وقد أرى النبي عليه السلام أنه 'مع دف نعلي بلال بين يديه في الجنة ، فسأله بعد الصلاة : يا بلال ! حدثني بأرجى عمل عملته عندك في الإسلام منفعة ، فإني 'معت ليلة دف نعليك بين يدي في الجنة . . . فلم يذكر بلال زهده ولا جهاده ولا صبره على العذاب ولا أمانته وتسليمه . بل قال : « ما عملت عملاً في الإسلام أرجى عندي من أني لا أتطهر طهوراً تاماً في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب الله لي أن أصلي » .

فكان اصطفاء النبي هذا الصديق المؤمن الأمين اصطفاء المرئي الكبير للرجل تشر فيه التربية والقدوة الحسنة كما يثمر فيه الصنيع الجميل ، ويحب للطف محضه كما يحب لخلوص طويته وفضائل نفسه ، وقد كان كالحارس الملازم لشخص النبي عليه السلام في طویل صحبته بين الحرب والسلم والإقامة والسفر ، ولكنه عليه السلام لم يكن يتخذ حارساً يحميه كما يحمي الحراس الأمراء والسلطين ، وإنما كان يستصحبه في إقامته وسفره استصحاب الحراس لأنه كان يستريح إلى رؤيته والشعور بصدق مودته ووفائه ، وكانت مودة بلال لمولاه وهاديه تبدو منه حيث يريد

وحيث لا يريد ، فإذا أشند المهجير في رحلة من الرحلات أسرع إلى تظليله
بثياب الوشي والنبي لا يسأله ذلك ، وإذا تهبأوا للقتال ضرب له قبة من
أدم يرقب الموقعة منها وجعل يتردد بينها وبين الميدان ليطمئن عليه ويتلقى
الأمر منه ، فلم يفرقها موقف ضنك ولا موقف خطر ، ولم ينقض يوم إلا
جمعتهما فيه الصلوات الخمس ومجالس العظة والحديث ، ما لم يكن في
غيبة قصيرة لشأن من شئون الدين الذي لم يكن له شأن سواه .

ولما فتحت مكة أمره النبي عليه السلام أن يقيم الأذان على ظهر
الكعبة فأقامه والمشركون وجوم يغبطون آباءهم لأنهم لم يشهدوا ذلك
اليوم ولم يسمعوا ما سمعوه فيه ، ودخل النبي الكعبة فكان في صحبته ثلاثة
هم عثمان بن طلحة صاحب مفاتيحها وأسامة بن زيد ابن النبي بالتبني ،
وبلال .

وما زال يصحب النبي مجاهداً حتى قبض عليه السلام ، فأقام الأذان
بعد وفاته أياماً على أرجح الأقوال ثم أبى أن يؤذن وأصر على الإباء ، لأنه
كان إذا قال في الأذان « أشهد أن محمداً رسول الله » بكى وبكى معه
سامعوه ، فلم يطب له المقام حيث كان يصحب النبي ويراه ثم هو بعد
لا يصحبه ولا يراه ، وآثر الاغتراب على فرط حبه لمكة والمدينة ، وآثر
الجهاد على فرط حاجته إلى الراحة في عشرة السنين ، واتفقت أرجح
الأقوال على أنه استغنى الصديق من الأذان معه واستأذنه في الخروج إلى
الشام مع المجاهدين . فأذن له بعد إلحاح منه ، واشترك في معارك
لأنعلمها على التفصيل ، ثم سكن إلى ضيعة صغيرة بجوار دمشق يزرعها
ويعيش من غلتها ، ولم يسمع عنه خبر بعد ذلك إلا يوم أذن للخليفة

الفاروق بدعوة من كبار الصحابة والتابعين ، ويوم تصدى لمحاسبة خالد في مجلس الحكم بين يدي أبي عبيدة .

وأدركته الوفاة في نحو السبعين - لأنه كان ترب الصديق على أرجح الأقوال - وقيل إنه مات في طاعون عمواس ، وقيل سنة عشرين للهجرة أو إحدى وعشرين . واستعذب الموت لأنه سيجمع بينه وبين النبي وصحبه كما كان يقول في ساعات الاحتضار ، فكانت زوجته تعول إلى جانبه فتصبح صبيحة الولد ١ واحزنه . فيجيبها في كل مرة بل وافرحاه . غداً نلتى الأحبة، محمداً وصحبه .

وكانت وفاته بدمشق فدفن عند الباب الصغير ، وقبره رضى الله عنه معروف يزار .

وليس أدل على قدر بلال عند الصحابة والتابعين من ذلك الوجد الذي اختلجت به حناياهم وهو يؤذن لهم في دمشق بعد انقطاعه عن الأذان تلك السنين الطوال . بكى عمرو وبكى معه الشيوخ الأجلاء حتى اخضلت اللحى البيض واضطربت الأنفاس التي لاتضطرب في مقام الروح . ولوبدا لهم أنهم يستمعون إلى صوت آدمي ينطلق من حنجرة من اللحم والدم لما اختلجوا تلك الخلجة ولاتولاهم ماتولاهم يومئذ من الوجد والرغبة ، ولكنهم أنصتوا لوحى الغيب حين أصغوا إليه ، وقام في أفئدتهم أنه صوت جدير بمحضر النبي عليه السلام يسمعه معهم كما سمعوه معه آونة من الزمان . فهم إذن في عليين أو قريب من عليين ، وهم إذن على مسمع ومشهد من ذات الله جل وعلا وذات النبي عليه السلام في جواره ، وهم إذن أرواح علوية يضيق اللحم والدم بفيضها الإلهي

فترجف من الوجد وتنكسر الأجساد بالبكاء مغلوبة في عالم الأرواح
وآفاق السماء .

رحم الله بلالا إنه كان داعي السماء ليرفع أبناء الأرض بدعوتها . وقد
رفعهم في ذلك اليوم إلى الأفق الأعلى ؛ إلى الحضرة التي ترتجف فيها
الأجساد لأنها غريبة في ذلك الجوار .

. . .

وحق للمسلمين في ذلك العهد أن يقرنوا بين محضر النبي وصوت بلال
حيث كان . فمن سيرة بلال الوجيزة نعلم أنه كان يأوى إلى كفالة النبي في
حياته البيئية كما كان يأوى إليه في حياته الدينية . وأن أحداً من الصحابة
لم يكن يذكرهم بالنبي عليه السلام كما كان يذكرهم به مؤذنه وصاحبه
ووليه طوال حياته حيث يرونه أو حيث يستمعون إليه ، وقد شغل النبي
بمعيشتة في بيته كما شغل بعقله ورزقه وتقويم دينه ، ففي روايات مختلفة أنه
تزوج بوصية منه عليه السلام ، وفي إحدى هذه الروايات « إن بنى أبي
البكير جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا : زوج أختنا فلانا . فقال لهم :
أين أنتم عن بلال ؟ ثم جاءوا مرة أخرى فقالوا يا رسول الله أنكح أختنا
فلانا فقال لهم : أين أنتم عن بلال ؟ ثم جاءوا الثالثة فقال لهم : أين أنتم
عن بلال ؟ أين أنتم عنه رجل من أهل الجنة . فأنكحوه » .

والظاهر أنه تزوج غير مرة وأنه مات بغير عقب ، فقد جاء في رواية
قتادة أنه تزوج أعراية من بنى زهرة ، وجاء في رواية أخرى أن له زوجة
تدعى هنداً الخولانية ، وهى من خولان اليمن لا من خولان الشام ، لأنها
كانت معه قبل هجرته إلى الشام .

ذكره ابن إسحاق فيمن حضر بديراً فقال : وبلال مولى أبى بكر .
مولد من مولدى بنى جمح اشتراه أبو بكر من أمية بن خلف وهو بلال بن
رياح لاعقب له .

نعم ولكنه أعقب الميراث الذى يتصل بالأذان فى كل مكان . . . فلا
ينساه من يسمع الأذان ويرجع به إلى أول من نادى به قبل أجيال
وأجيال .

إسلام بـلال .

كل إيمان فهو شئ يتجاوز الفرد الواحد ولا ينحصر في مصلحته العاجلة أو الآجلة .

فليس بإيمان ذلك الذى يخص فرداً واحداً ولا يتجاوزه إلى غيره في زمنه أو بعد زمنه ، وليس بإيمان ذلك الذى يدور على المصلحة الفردية وإن تعدد فيه الأفراد ، لأن الإنسان قد يضحي بالمصلحة في سبيل الإيمان ولا يفعل ذلك وهو يحسب حساب المصالح ولا يتجاوزها . وقد يضحي الإنسان أحياناً بالإيمان في سبيل المصلحة العاجلة أو الآجلة ، ولكن ذلك لا يبنى أن الإيمان شئ أكبر من المصلحة عاجلها وآجلها ، وإنما يدل في هذه الحالة على أن ذلك الانسان يستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير ، وأنه ضعيف اليقين ضعيف الاستعداد للإيمان . قال الإيمان لا يقوم على أساس المصلحة العاجلة أو الآجلة .

ويكفى أن يضحي الناس بمصالحهم في سبيل إيمانهم - ولو في بعض الأحيان - لتقرير هذه الحقيقة من وراء الجدل والخلاف .
لأننا نفهم أن ينسى الرجل إيمانه في سبيل مصلحته فنقول إن المصلحة عزيزة عليه وإن الإيمان ضعيف في نفسه .

ولكننا لا نفهم أن ينسى الرجل مصلحته في سبيل إيمانه إلا على وجه واحد ، وهو أن الإيمان والمصلحة معدنان مختلفان ، وأن المصلحة عزت أو هانت هي شئ غير الإيمان .

ولا يقال إن مصلحة الآخرة تدخل في حساب الرجل فينسى من أجلها مصالحه الدنيوية . فإن تصديقه بمصلحة الآخرة هو نفسه إيمان بالغيب ، وهو سابق لحصول المصلحة على كل حال .

ومع هذا وجد في زماننا هذا أناس - كأتباع كارل ماركس - يؤمنون

بالمادة وينكرون كل شئ غير هذه الدنيا المحسوسة ، ويقولون إن الأديان والمذاهب والآداب وكل ما يحبك بضمير الإنسان إن هى إلا صورة من حياته المادية التى لا بعث بعدها ولا محل للروح فيها ، ومنهم مع ذلك من يدخل السجن ويتعرض للنق و يجازف بالحياة ويفقدها فى سبيل إيمانه بمعتقده وإنكاره لمعتقد الآخرين . . . وليس بالمعقول أن يفقد الإنسان الحياة لأنه يطمح إلى الطعام الهنى والعيش الرغيد ، وليس بالمعقول من باب أولى أن يفقد الحياة ليأتى بعده من ينعم بالطعام الهنى والعيش الرغيد وهو تحت التراب . فإذا هو أقدم على فقد الحياة فالمسألة عنده ليست مسألة حساب وموازنة أو مسألة مصلحة كبيرة بإزاء مصلحة صغيرة ، ولكنه إنما يفعل ذلك لأنه بإزاء قوة تمضى به حيث شاءت ولا يمضى بها حيث شاء ، أو لأنه فى حالة نفسية غير حالة الحساب والموازنة ووضع الأرقام بإزاء الأرقام .

وقد شوهدت فى الدنيا عبادات كثيرة وعقائد لا تحصى ، ولكن لم تشاهد قط عقيدة تقبل التضحية بالحياة وهى خلو من إيمان بحق وثورة على باطل ، ولم تشاهد قط عقيدة تقبل التضحية بالحياة وهى قائمة على منفعة تخص صاحبها ولا تتجاوزه إلى الآخرين . ومتى تجاوزت المنفعة فرداً واحداً وأصبحت قابلة للتعميم بين الأفراد الآخرين - فهى إذن مسألة حق سابق لوجود المنافع وسابق لوجود الأفراد .

فالإيمان أبداً هو شعور بالحق وليس شعوراً بالمصلحة على وجه من الوجوه .

وقد تقف المصلحة فى سبيل العقيدة قبل الإيمان بها ، لأن المصلحة

موجودّة والإيمان غير موجود . ولكنها متى وجدتا معاً فهما شيئان وليسا بشيء واحد . ويظللان أبداً شيئين من معدنين مختلفين وإن تلاقيا في الطريق إلى مدى بعيد .

وإن إسلام بلال رضي الله عنه لمن الشواهد الكثيرة التي تقرر هذه الحقيقة في الأذهان .

وقد عينا بأن نين مزايا الإسلام في معاملة الأرقاء . ولكننا عينا مع ذلك بأن نين حقيقة أخرى لا بد من تبيينها في هذا المقام ، وهي أن المعاملة نفسها ليست هي سبب دخول الأرقاء في الإسلام ، وإنما هو « الحق » والشعور بحال هذا الحق أو وجوب تغليبه على الباطل ، ولولتي الأرقاء في سبيله ما هو أقصى عليهم من معاملة المشركين للعبيد والإماء . كان أول من أسلم ثمانية هم أولئك النخبة الأبرار : خديجة وأبو بكر وعلى وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد .

قال رواة صدر الإسلام : أما أبو بكر ففعله الله بقوته وكذلك من كان لهم قوم يحمونهم . وأما سائرهم فاخذهم المشركون فالبسوهم أدرع الحديد وأصهروهم في الشمس فما منهم إنسان إلا وقد واثاهم على ما أرادوا من الكفر وسب النبي عليه السلام . إلا بلالا فانه هانت عليه نفسه في الله وهانت على قومه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول : أحد . أحد . ولا يزيد .

وجاء في طبقات ابن سعد بأسناده ما فحواه : إنه كان من المستضعفين من المؤمنين ، وكان يعذب حين أسلم ليرجع عن دينه فما أعطاهم قط كلمة مما يريدون ، وكان الذي يعذبه أمية بن خلف . . . وكانوا إذا اشتدوا عليه في العذاب قال أحد . أحد . فيقولون له قل

كما نقول . فيقول : إن لسانی لا يحسنه . وكانوا يأخذونه فيمطونه ويلقون عليه من البطحاء وانطاع الأدم ويريدونه على أن يذكر اللات والعزى فلا يذكرهما ويقول : أحد . أحد . فأنى عليه أبو بكر فسألهم علام تعذبون هذا الانسان ! واشتراه بسبع أواق وأعتقه .

ومما جاء في الطبقات أن أبا جهل جاءهم بالعشى فجعل يشتم سمية ويرفث ثم طعنها فقتلها فهي أول شهيد في الإسلام . وهانت على بلال نفسه في الله حتى ملوه فجعلوا في عنقه حبلا ثم أمروا صبيانهم أن يشتدوا به بين أخشبي مكة فلم يزداهم في كلمته التي كان يردددها ولا يمل من تردادها : أحد . أحد .

وكانوا يضربونه ويلقونه على الرمال الكاوية في وقدة المهجير ثم يضعون الحجارة على صدره وهو لا يجيبهم إلى كلمة مما يسألونه ، ولا يسكت ولا يكف عن الجهر بالتوحيد .

• • •

هذه صورة بلال رضى الله عنه في مبدأ إسلامه وهو يتلقى العذاب ويتعرض للموت ولا يصل به الإسلام إلى الوعود - فضلا عن تحقيق الوعود - في معاملة المستضعفين من العبيد والاماء ، لأن أحكام الإسلام في معاملة الأسرى والأرقاء على التعميم لم تكن معروفة مفصلة في ذلك الحين .

وإن آخر ظن يخطر على بال المرء إذ يرى بلالا على تلك الصورة المؤلة أنه يرى رجلا وازن بين سوء المعاملة في الجاهلية وحسن المعاملة في الإسلام فاختار المعاملة الحسنة ودخل في الدين الجديد من أجلها . لأن إسلام بلال لم يكن مخرجه من رق سادته المشركين ، ولم يكن

سوء معاملتهم إياه قبل الاسلام شيئاً يذكر إلى جانب ذلك العذاب الأليم الذى كان يسامه بعد إسلامه ، ولو كان حسن المعاملة همه من الدين الجديد لا تنتظر حتى يسلم سادته فيقطع عندهم في تلك المعاملة الحسنة ، أو لا تنتظر حتى يمتنع جانب المسلمين بالعدد الكثير فيجهر بالإسلام بين مئات وألوف ، ولا يعجل إلى دخول الدين الجديد بين نفر من المغلوبين المطاردين ، سواء من الأحرار أو العبيد .

وأعجب شيء أن يخطر للعقل أن الإسلام قد سوى بين العبيد والأحرار فأمن به العبيد ، ولا يخطر له أن هذه التسوية تغضب الأحرار فتحميمهم الأنفة أن يدخلوه . وقد دخله الأحرار كما دخله العبيد في مبدأ التبشير بالدين الجديد .

فإن كانت لبلال وصهيب وأمثالهما مصلحة في الإيمان بذلك الدين لأنه سوى بينهم وبين أبى بكر وحمزه وعثمان وعلى والفاروق فما مصلحة هؤلاء في التزول بأقذارهم إلى حيث يتساوون بعبيدهم المستضعفين وهم أولئك ذوو الحمية التى تشمخ برؤسهم على رؤوس الأحرار من أبناء كل قبيل لا يضارعهم في العزة والجاه !

فعن الحق وسكينة فى النفوس فلنبحث فى تعليل الإيمان بكل عقيدة جديدة وكل مصلحة إنسانية فوق مصالح الأفراد . وإنما يوجد الإيمان حين يوجد للنفس حقٌ محبوب وباطل مكروه . ولو ضاعت فى سبيل حب الحق وكراهة الباطل مصلحة عاجلة أو آجلة أو ضاعت الحياة بغير أمل فى الجزاء .

فلا العبيد آمنوا لأن الإسلام سوى بينهم وبين الأحرار ولا الأحرار

آمنوا لأن الاسلام يسوى بينهم وبين العبيد . لأن قصارى هذه التسوية أنها مصلحة لفريق من الناس . وما زال الإيمان والمصلحة شيئين مختلفين ومعدنين متباينين . فالمصلحة شيء تحتويه حياة الفرد وقد تحتويه حصّة قليلة من حياته . أما الإيمان فهو أبداً شيء يتجاوز الفرد الواحد وقد يذل في سبيله المصلحة والحياة .

أو لم يوجد في الوثنية وفي بعض الأديان الكتابية أناس يؤمنون بالأرباب وهم يؤمنون أن الأرباب تفرق بين أقدارهم وأقدار ساداتهم في الحياة وبعد الممات ؟

أو لم يكن بلال يؤمن باللات والعزى وغيرها من أرباب الجاهلية وكان لا يرجو نصفة منها ولا تسوية بينه وبين ساداته المتجبرين عليه وعلى سائر الضعفاء ؟

فلما ساء ظنه بهذه الأشتات من الأرباب كان حسن ظنه بالأله « الأحد » هو الذى سوأ ظنه بدين الجاهلية ، وكانت وحدانية الله العلى الأعلى هى التى تجرى على لسانه وتعمر قلبه وتعينه على شدته وهو يتلظى من ألم العذاب بين يدي سادته القساة .

فكانت الوحدانية هى الكلمة الواحدة التى لخص بها فضل الدين الجديد على الدين المهجور . وقد ألهم هذا التلخيص الصادق الوجيز إلهام الايمان الذى يهذى العقل إلى موقع الهدى من أوجز طريق ، فلو أنه كان يقول « الرحيم » فى موضع « الأحد » لجاز أن يقال أن فى الآلهة الوثنية من يتصف بالرحمة . أو لجاز أن يقال إن الرحمة بدرت إليه فى تلك اللحظة لأنه يشتكى القسوة والعذاب . ولكنه لما ردد كلمة

الوحدانية ولم يردد غيرها كان قد هدى إلى الصفة الوحيدة التي لا يدعيها المدعون لأرباب الجاهلية ، كما هدى إلى الصفة الوحيدة التي تجعل الايمان إيماناً بالحق ولا تجعله انتظاراً لرحمة أو غفران أو جزاء .

ولا تريد أن نقول إن الايمان والمصلحة لا يجتمعان . ولا أن تقول إن المؤمن لا تخطر له المصلحة بحال أو إنها لا شأن لها البتة في تحول العقائد والعبادات . فان المصلحة قد تعوق كثيراً من الناس عن قبول دين جديد ، وقد تنبه الأذهان إلى الإصغاء الذى يتبعه الارتياح والتصديق ، وقد تكون مصلحة فرد ومصلحة ألوف من الناس ، فيستطاع الجمع بينها وبين الايمان بالخير العميم .

ولكن الذى نقوله إن المصلحة غير الإيمان وإنهما قد يفترقان كما يتفقان ، ولو كانت المصلحة هي الايمان لو جددت المصلحة ولم تكن هنالك حاجة إلى وجود إيمان على الاطلاق ... كفى أن يسعى الانسان إلى مصلحته دون أن يجعل الايمان سبيلاً إليها ، وكفى أن يلتزم المصلحة ولا يتعداها إلى الشعور الذى يحجب إليه الموت . فأما وقد وجد الايمان في كل زمن من الأزمان ، ووجد مع انتظار الجزاء ومع اليأس من كل جزاء ، فلا معنى لأن يقال إن فرداً من الأفراد قد آمن لأن له مصلحة في إيمانه ، فإنه يضم إلى المصلحة شيئاً آخر إذن حين يدعمها بالإيمان .

كلا . ليست صورة بلال على رمال البطحاء الموقدة في قيظ الصحراء صورة الرجل الذى طلب الخلاص من قسوة السادة . لأن الخلاص هو كل ما يعنيه .

وليست صورته وهو يكرر « الأحد . الأحد » بصورة الرجل الذى

دخل الدين الجديد وهو يجهل الفارق الصحيح بين الدينين . ولا يعرف للدين الجديد فضلا إلا الرحمة بالعبيد في الأرض أوفى السماء .
لقد كادوا يقتلونه وهو لا يجيبهم إلى تعظيم آلهتهم ولا يؤثر السكوت .
ولعلمهم لم يبقوا عليه إلا لشحهم بشفه أن يضع عليهم إن قتلوه . ولعل أبا جهل قد قتل سمية لأنها جارية عجوز لا تصلح للبيع ولا للمبادلة .
ولم يقتل بلالا ولا عماراً ولا صهيياً لأنهم رجال عاملون يباعون ويشترون ... ولكنهم لاشك كانوا قاتليه آخر الأمر إن يشؤا منه ولم يجدوا من المشركين من يشتريه وهو صائى عن دين الجاهلية . فلم يكن إسلامه سبيل رفق ولا تخفيفاً من عناء . بل كان سبيل عذاب ومخاطرة بالراحة والحياة .

وأى عذاب ذلك العذاب ؟

حسبنا أن نعلم أن رفقاء بلال جميعاً قبلوا ما ساءهم . المشركون أن ينسوا به - ومنهم عمار بن ياسر - لنعلم أنه كان عذاباً يفوق طاقة الإنسان :

إن عماراً لم يكن يهاب الموت في هرمه ، ولكنه ضاق - في صباه - بذلك العذاب الأليم .

كان يجاهد مع على رضى الله عنه وقد أناف على التسعين ، وقد شهد المغازى في عهد النبي وعهود الخلفاء ، وكان عليه السلام يقول : « إن عماراً ملىء إيماناً إلى مشاشه » ويجعله قدوة للمسلمين في الهداية فيوصيهم أن يقتلوا بأبى بكر وعمر وأن يهتدوا بهدى عمار . وهو أيضاً لم يجذبه إلى

الإيمان طلب راحة وطمع في حسن معاملة ، لأنه كان يرى طريق الراحة والغنيمة مع معاوية وينضوى إلى جانب على لموت تحت لوائه في صفين ، وما كان على لو انتصر بمغدي عليه مالا ولا بمطمعه في عيش أرغد من عيشه ، وهو عيش الكفاف .

وقد كان عمار رضى الله عنه ممن يصدق عليهم القول بأنه قد وهب عبقرية الإيمان . لأن إيمانه كان ذلك الإيمان الخالص الذى يوصف بأنه الإيمان حياً للإيمان لا حياً بما وراءه من رضى أوجزاء . وآية المؤمن الموهوب أنه لا يرضى العيش بغير العقيدة ولا يطيب له البقاء وهو مخالف لما يعتقد . فيقبل على الموت كراهة للبقاء في دنيا لا تواتيه على اعتقاده . وليس يقبل على الموت طلباً للجنة كما يقال . فإن من المؤمنين بالعقائد المادية كما أسلفنا من يموت في سبيلها ولا أمل له في حياة بعد الحياة . وإن الجنة الحبيبة إلى كل إنسان يصدق بها . فليس الفرق بين رجل يجاهد ورجل لا يجاهد أن هذا يكره الجنة التى يحبها ذاك . وإنما الفرق بينهما هو قوة الإيمان أو هبة العقيدة . وهى قد كانت في عمار على أقوى ما تكون في إنسان .

ومع هذا خف الموت على نفس عمار فسعى إلى لقائه عشرات المرات منذ غزا مع النبی إلى أن نيف على التسعين ومات تحت لواء على بمعركة صفين ، ولكنه ثقل عليه ذلك العذاب الأليم الذى صبر عليه « بلال » وظل صابراً عليه بغير أمل في الخلاص القريب ،

وكل طمع في حسن المعاملة يزول ويبطل في مثل ذلك العذاب الذى ضاقت به طاقة عمار .

نعم يزول ويبطل لولا إيمان يهون معه الموت ويهون معه العذاب ،
ويهون معه سوء المعاملة وحسنها على السواء .

نعم إن العبيد كانوا أسرع من الأحرار إلى دخول الدين الجديد ،
ولكن الذى يفهم من ذلك - أو ينبغى أن يفهم منه - أن المصلحة لم
تكن عقبة بين العبيد وبين الأصغاء إلى الدعوة الجديدة ، وأن الأحرار
كانت لهم مصالح تحجبهم عن جمال تلك الدعوة وعن التأمل فى صدقها
وبطلان ما هم عليه ، وفرق عظيم بين القول بأن المصلحة لم تكن عائقاً
عن فهم الدين والدخول فيه وبين القول بأن الدين هو المصلحة التى
أرادها المؤمنون ، إذ لو كانت المصلحة هى المراد بالعقيدة لما وجدت
العقيدة على الإطلاق ، ولوجدت المصالح كما هى موجودة فى الدنيا بغير
اعتقاد على الإطلاق فى شئ من الأشياء .

لقد كانت فى نفس بلال حاجة إلى الولاء والإخلاص ، فصدق النبى
الكریم لأنه كان أهلاً لولائه وإخلاصه ، وكان خليقاً أن يطمئن إليه
ويشعر بالسكينة فى الإصغاء إلى قوله والافتداء بعمله .

وسمع رجلاً ينادى بأن الناس أمة واحدة وأن المؤمنين إخوة وهو فى
الذؤابة العليا من بنى هاشم أو فى الذؤابة العليا من قبائل العرب
جمعاء ، فكان هذا سبب التصديق والإيمان ، وكانت دعوة الرجل
الحسيب النسيب التى لا مصلحة له فيها هى البرهان الأول على صدق
العقيدة . ولولا انعدام المصلحة فى دعوة ذلك الرجل الحسيب النسيب
لما أسرع بلال إلى تصديقه والجنوح إليه .

فأما وقد جنح إليه وآمن بدعوته فالمسألة بعد ذلك لن تكون مسألة
موازنة بين المعاملات أو مساومة على الزيادة والنقصان ، ولكنها أصبحت

مسألة راحة بالإيمان أو راحة بغير الإيمان ، ولم تكن لبلال راحة بغير ذلك الإيمان بعد أن جنح إليه ومزجه بقلبه وضميره . فصبر في أيام معدودات على عذاب لم يكن ليلقاه من المشركين مدى العمر لو بقي على دينهم كما كان وقد صبر على بلاء الجسد لأنه مستريح القلب والضمير .

على أن المعاملة الحسنة قد جاءت إلى بلال من حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب كأحسن ما تصبو إليه الأحلام ويتعلق به الرجاء فبلغ من تعظيمه أنه كان ندأ لأعظم المسلمين في حياة النبي عليه السلام وحياة الصديق والفاروق . بل كان الفاروق رضى الله عنه يقول « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا » ويقصده بهذا اللقب الرفيع ، واتفق يوماً أن أبا سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو بن الحارث ورهطاً من سادة العرب طلبوا لقاء الفاروق وطلبه معهم بلال وصهيب . فأذن لها حتى يستمع لما يريدان ويفرغ بعدهما لعلية القوم . وغضب أبو سفيان وقال لأصحابه : لم أركا ليوم قط . يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه ؟ وكان سهيل أحكم منه وأدنى إلى الإنصاف فقال لهم : أيها القوم ! إني والله أرى الذى فى وجوهكم . إن كنتم غضاباً فاغضبوا على انفسكم . دُعى القوم . - إلى الإسلام - ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم . فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم ! » .

• • •

جمال هذا الأدب هو الذى يهون فى سبيله الموت وسوء المعاملة والعذاب الأليم ، وهو الذى يوحى العقيدة إلى النفس فترتفع بها فوق المصالح والمساومات . ولقد كان هذا أدب النبي فأحبه الأحرار وأصغوا

إليه وصدقوه . . . ولقد تمت أداة العقيدة حين مم الحب والإصغاء والتصديق . فما يزال بنو الانسان على هذا الشأن إلى آخر الزمان : ليس بينهم وبين الفداء إلا قضية يحبونها وداع يصدقونه . وما يكونون يوماً أحوج إلى الإيمان منهم يوم تغر عليهم القضية التي تحب والداعى الذى يصدق . فإذا بلغت بهم هذه الحاجة مداها فليس أمامهم محيص من إحدى غايات ثلاث : فناء ، أو حياة كحياة الحيوان ، أو إيمان بوجود حيث كان .

صفات بلال

كان بلال رجلا على سواء الفطرة .

وآية ذلك أنه كان كما ينبغي أن يكون كل رجل قوى الطبع من بنى جلده وفي مثل نشأته ، يمر بالحوادث التي مرّ بها ويمارس التجارب التي مارسها .

وقد تقدم في صفات الموالى الأفريقيين أنهم ينقمون الإساءة على المسيء ويحفظون الحسنة لمن يحسن إليهم ويملكهم بمهابته وطيب سجاياه .

وهكذا كان بلال رضى الله عنه في مجمل صفاته : كان متصفا بأجمل صفات بنى جلده : وهى الأمانة والطاعة والولاء والصدق مع الولاء ، وكانت فيه مع ذلك قسوة وعناد في موضع القسوة والعناد ، ولكنه لم يكن بالمبتدئ في قسوته ولا بالمكابر في عناده . إنما كان لقسوته عذر أو سبب ، وكان لعناده فضل الإصرار على الإيمان بالصواب .

قال ابن الرومى :

إذا الأرض أدّت ربيع ما أنت زارع

من البذر فيها فهى ناهيك من أرض

ولا عيب أن تُجزى القروض بمثلها

بل العيب أن تدّان دنيا فلا تقضى

فالذين أساءوا إلى بلال كانوا لا يحمدون أثر الإساءة فيه ، وكانوا يطلبون منه الرضا حيث أسلفوا له المساءة فلا يجدون الرضا حيث طلبوه ، فإذا بهم ينحلونه صفاتهم ويعيبونه بمساءتهم ، وينكرون صحبتته كما ينكر صحبتهم . ومن ذاك أن مشترياً أراد أن يساوم فيه سيده « قبل أن يفوتها خيره وتحرم ثمرته » فقالت له متعجبة : وما تصنع به؟ إنه

خيـث . . . وانه . وانه ! إلى آخر ما وصفت به سخطه على سوء المعاملة وسوء العشرة .

ومع هذا قد أجمع الذين وصفوا بلالا على أنه كان طيب القلب صادق الإيمان ، وأنه أبعد ما يكون عن خبث أو كنود ، وإنما هو بشرة سوداء على طبع صاف يرى الناس وجوه أعمالهم فيه .

وقد كان أكرم صفاته الفطرية مما يوافق الطاعة وصدق الولاء ، فكان إيمانه القوى بالله ، وإخلاصه المكين لرسول الله ، هما الذروة التي ترتقى إليها محاسن بني جلدته ، ومحاسن كل مولى مطيع ، سواء كان ولاؤه ولأوه ولأولاد ، تابع لمتبوع أو ولأه معجب بمن يستحق الإعجاب .

كان حبه لرسول الله هو لب الحياة عنده ، وهو معنى الدنيا والآخرة في طوية قلبه ، وعاش ومات وهو لا يرجو في دنياه ولا بعد موته إلا أن يأوى إلى جواره وينعم برضاه .

وحضرته الوفاة فكانت امرأته تن وتغلبها النكبة في قرين حياتها فتصيح : واحزنانه .

وكان هو يجيبها في سكرات الموت : بل وافرحته ! غداً نلقى الأحبة . غداً نلقى الأحبة ، محمداً وصحبه .

على هذا عاش وعلى هذا مات ، وما كان له من علاقة تربطه بهذا الكون العظيم إلا وهى في جانب منها علاقةً بمحمد رسول الله ومحمد سيده ومولاه .

وتلك الزوجة الوفية البارة كانت ترضيه في معظم حالاتها وكانت لا تخليه من مناكفة في بعض حالاتها كما يتفق أحياناً في كل عشرة بين الزوجين وفي كل صلة بين إنسانين ، فكان يقبل منها كل ما يسر ويسوء إلا

أن تمسه في لب اللباب وأصل الأصول ومناط الحياة والكرامة عنده :
وهو إخلاصه لرسول الله وصدق الرواية عنه . فاستعظمت يوماً ما بحديثها
به عن رسول الله فإذا به يثور ويغضب ويهم بالبطش بها ثم يدع المنزل
محنقاً مقطباً حتى يلقاه الرسول ، فيلمح ما به من تغير حال ويعلم سره
فيشفق أن يدعه على ما هو فيه وأن يدع لزوجته مظنتها في صدقه .
ويذهب معه إلى بيته فيقول للمباركة : «ماحدثك عنى بلال فقد
صدق . بلال لا يكذب ، فلا تغضبى بلالا» .

فإذا المولى الأمين هانئ قرير .

وقد أثر عنه هذا الصدق بين الصحابة فكانوا يشكون في أبصارهم
ولا يشكون في روايته ونقله . ويروون عنه رواية اليقين في شئون الصلاة
والصيام .

ففي صحراء العرب حيث يضيء النهار إلى ما بعد غروب الشمس
وتشيع لمحات النور قبل مطلعها كان بعض المسلمين يترددون في مواعيد
السحور والإفطار فيقولون : إنا لنرى الفجر قد طلع ، أو يقولون . ما نرى
الشمس ذهبت كلها بعد ، فإذا سمعوا من بلال أن رسول الله أكل أو أنه
ترك رسول الله يتسحر فالتقول ما قال بلال ، وليس للشك في ضوء النهار
مكان .

وقد لزمتم بلالاً عادة الصدق في كل كلام يبلغه المسلمين عن النبي
أو يبلغه إليهم في شأن من عامة الشئون وخاصتها ، فلما رجاه أخوه في
الإسلام - أبو رويحة - أن يسفر له في زواجه عند قوم من أهل اليمن
لم يزد على أن قال : «أنا بلال بن رباح وهذا أخى أبو رويحة. وهو امرؤ

سوء في الخلق والدين ، فإن شتم أن تزوجه فزوجوه ، وإن شتم أن تدعوا فدعوا

فزوجوه فكان حسبهم عنده أن يقبل الوساطة ولا يرده أو يموه عليهم أوصافه !

وقد كان من ولاته لأبي رويحة هذا أن ضم ديوان عطائه إليه حين خرج إلى الشام . فلما دون الناروق دواوين الصحابة سأله : إلى من تجعل ديوانك يا بلال ؟ قال : إلى أبي- رويحة « لا أفارقه أبداً . للأخوة التي كان رسول الله عقد بينه وبينى » .

وذاك أن رسول الله قد آخى بينهما قبل الهجرة إلى المدينة كما آخى بين غيرهما من صحابته الأوفياء . فكانت أخوة العمر عنده من فضل الولاء لرسول الله . وكان أحب الناس إليه وأولاهم برعيه من أمره رسول الله أن يحبه ويرعاه .

. . . .

وقد عرف له النبي عليه السلام هذه الخصال التي تتجمع كلها في صفة الأمانة - وهو هو قائد الرجال الخبير بمناقب النفوس - فأقامه في موضع الثقة واثمنه على مال المسلمين وعلى طعامه ومؤنته وشخصه ، واستصحبه في غزوه وحجه وحله وترحاله ، وأسلمه العترة يحملها بين يديه أيام العيد والاستسقاء ، ولم يعرف أحد من الصحابة لازمه عليه السلام كما لازمه هذا المؤذن الذي يقيم معه الصلاة وهذا الأمين الذي يحفظ له المال والطعام ، وهذا الرفيق الذي كان يظله بالقبة والستار من لفحات الهجير في رحلات الصيف ، وربما تقدمه فركب ناقته « القصواء » التي قلما كان يركبها سواه عليه السلام ولم يدخل الكعبة معه بعد فتح مكة غير

عثمان بن طلحة صاحب مفاتيحها وأسامة بن زيد مولاه ، وبلال .
ودامت هذه الصحبة حتى قبض عليه السلام وحتى دفن في ثراه .
فكان بلال هو الذى ذكر واجب الحنان المكلم فى ذلك الموقف الأليم ،
فحمل القرية ودار حول ذلك الثرى الشريف بيلله بالماء .

* * *

وعلى هذا الحنان فى طويته لمولاه العظيم كان للرجل ضمير يعرف
الإصرار على رأى كاشد ما عرف مؤمن بعقيدة ونافر من رذيلة .
وربما كافى الإصرار شئ من عناد بنى جلدته أبناء الحبشة وأبناء
السلالة السوداء . إلا أن العناد خصلة ذات لونين أحدهما يحمى ويفيد
وثانيهما يذم ويضير .

فالعناد أحد لونه ثبات على الصواب والعقيدة ، وفى لونه الآخر ثبات
على الخطأ والهوى ، ولم نعرف من العناد فى تاريخ بلال إلا أجمل اللونين
وأشبهها بقوة الأسر وخلاتق الأبناء .

من ذلك عناده للمشركين حين ساموه العذاب ليفتنوه عن دينه
ويكرهوه على سب نبيه كما تقدم فى وصف إسلامه ، ومنه إصراره على
ترك الأذان لغيره حين وقر فى نفسه أن أذانه بعد رسول الله نقص فى
الوفاء ، وربما كان منه أصراره على الجهاد والسفر من المدينة إلى الشام
حين سأله الخليفة البقاء فقال له فى رواية مشهورة : « إن كنت أعتقنى
لنفسك فاحبسنى ، وإن كنت أعتقنى لله عز وجل فذرني أذهب إلى الله
عز وجل » وأبى إلا أن يمضى حيث أراد .

ولاشك أن الرحمة بالاعداء أمر لا ينتظر من رجل طال عهده وعهد
قومه وآبائه وأجداده بقسوة الطغاة وعذاب اللؤماء ، فإن رحمة رجل

كهذا لمن أحسنوا إليه وسالموه خلق مفهوم لا غرابة فيه أما الخلق الذى يستغرب منه حقاً فهو رحمته فى ميدان قتال أو رحمته خاصة لمن أفرط فى الإساءة إليه .

ولهذا لا نستغرب ما روى عن بلال بعد وقعة خيبر وما روى عنه بعد وقعة بدر مع المشركين . ومنهم أظلم الناس له وأقساهم عليه . فلما افتتح النبى حصن القموص بخيبر جىء له بصفية بنت صاحب الحصن وقريبة لها دون سنها . فأرسلها عليه السلام مع بلال إلى رحله . فربها بلال على القتل من قومها فصاحت البنت الصغيرة صياحاً شديداً ولطمت على وجهها . وعلم النبى بما صنع فقال له عاتباً : أنزعت منك الرحمة يا بلال حين تمر بجارية حديثة السن على القتل ؟ فكان عذر بلال الذى اعتذر به جوابه : يا رسول الله ما ظننت أنك تكره ذلك . وأحييت أن ترى مصارع قومها !

أما فى وقعة بدر فقد كان عذره أوضح وأسلم من عذره فى وقعة خيبر

فقد رأى أمية بن خلف وابنه بعد الوقعة فى صحبة عبد الرحمن بن عوف يقودهما كما يقاد الأسرى ، وقد كانا أشد الناس أذى للمستضعفين من المسلمين كما تقدم ، وكان بلال أوفر المسلمين نصيباً من ذلك الإيذاء اللثيم . فما وقعت عينه على أمية حتى صاح بالمسلمين من حوله : رأس الكفر أمية بن خلف . لا نجوت إن نجا . ولم يغن عنه دفاع عبد الرحمن بن عوف بل جعل بلال يهم بقتله ويصيح : لا نجوت إن نجا . لا نجوت إن نجا . حتى اجتمع حولهم خلق كثير ، وضرب أحدهم ابن أمية فوق صريعاً فإذا بأمية يصيح من الفزع صيحة لم يسمع بمثلها . قال

عبد الرحمن بن عوف : انج بنفسك ولا نجاء بك ! فوالله ما أغنى عنك شيئاً . ولكن المقاتلين هبروهما بأسيا فهم قبل أن يخلص له سبيل إلى الفرار .

وقد يزيد في وضوح العذر لبلال من هذه القصة أن أمة هذا كان من أحق الناس باليغض وقلة الرحمة . لأنه كان يعذب المستضعفين تعذيب الجبان اللئيم لا تعذيب الساخط الغيور على عقيدة ، وكان يهرب القتال ولا يعرض حياته لمغامرات الحرب التي أقدم عليها شجعان المشركين . فما هو إلا أن سمع بنذير النبي إياه بالقتل حتى ارتعدت فرائصه وراح يسأل عن المكان الذي توعده بالقتل فيه . فصارح قومه بالقعود عن القتال وأنه لا يخرج لحرب المسلمين في غزوتهم تلك وهو مقصود بذلك الوعيد . ولم يتحرك للخروج حتى جاءه أبو جهل بين الملاء بمجمرة يبخره بها . وقال له : تجمر يا هذا فانما أنت من النساء . ولما نشبت المعركة ببدر كان هو وابنه في طليعة الناكسين عن القتال ، ثم قتل ابنه فكانت صيحته عليه صيحة فزع لا تسمع في ميدان . فانما كان تعذيبه المسلمين من لؤم الجرأة على الضعيف وهو آمن في عقر داره . ولم يكن من لدن العقيدة التي يغار عليها الرجل الشجاع ويلقى الموت هو وأبناؤه من أجلها غير وكل ولا هيأب . وليس أحق من مثل هذا بيبغضاء المنتقم في ساعة القصاص ، وكفى لبلال عذراً في هيجة غضبه عليه أنه يعلم إنذار النبي إياه بالقتل وأن أبا بكر هنأه بعد قتله فقال :

هنيئاً زادك الرحمن خيراً لقد أدركت ثارك يا بلال
وفي غير هذه الهيبة التي تدرك أحلم الناس في موطن النعمة وحومة

الحرب لم تكن شدة بلال غير حمية الرجل الفطرى التى تبدو منه القسوة وهو لا يعنىها . وكان فى جملة أحواله مثلاً للخلق الوديع والطيبة الرضية وحلاوة النفس والاتضاع . فكان يخجله أن يسمع الناس يحمدون بلاءه فى صدر الإسلام ويقدمونه على أجلاء الصحابة لثباته وصبره . فيطرق ويقول : إنما أنا رجل كنت بالأمس عبداً » وكانت قلة دعواه نفحة من نفحات تلك الطيبة الرضية . فلم يعرف عنه أنه تصدى لتعليم الناس ما يجهلون من أحاديث النبى عليه السلام بعد ملازمته الطويلة وكثرة سائليه والواقفين بصدق ما يرويه . ولم يزد فى إخباره عن النبى على ما يعنيه من إقامة الصلاة والأذان أو مواعيد الإفطار والصيام .

° ° °

وكان بلال ابن قومه فى خلقين آخرين يعرفان فى بعضهم، قدماء أو محدثين . وهما فراسة النظر وحب الراحة أو الضيق بالجهد الشديد . أرسله النبى عليه السلام مع رعية السحيمي ليرد له ابنه الذى أمره المسلمون ، فلم يفته وهو يقص نبأه على النبى أن يقول : والله ما رأيت واحداً منها مستعبراً إلى صاحبه ! فقال النبى ! ذاك جفاء الأعراب . ووكل إليه النبى وهو مقبل إلى وادى القرى بعد وقعة خيبر أن يوقظه لصلاة الصبح - وكان الحر شديداً ، فنام حتى طلعت الشمس . ثم صلى عليه السلام بمن معه وإن أحدهم ليست العرق عن جبينه من حر ذلك اليوم . فلما سلم قال : كانت أنفسنا بيد الله فلو شاء قبضها وكان أولى بها . ثم التفت إلى بلال فهتف به : مه يا بلال . فبادر بلال معتذراً وهو يقول : بأبى وأمى . قبض نفسى الذى قبض نفسك ! فتبسم عليه السلام .

وإنما تدل هذه السهوة - وإن لم تتكرر - على إيثار الراحة لأنها غلبت كل حذر من تفويت صلاة الفجر حاضرة على النبي وصحبه ، وهو حذرٌ كان ولاشك في نفس بلال شديداً بل أشد من الشديد .

• • • • •

وآخر ما يروى من أعمال بلال وقفته مع خالد بن الوليد حين أمر الفاروق بسؤاله عن الهبات التي كان يهبها لبعض الشعراء . فقد سكت خالد وأبو عبيدة يسأله عن تلك الهبات أمي من ماله أم من مال المسلمين ؟ وهو معرض لا يجيب . فوثب إليه بلال ثم تناول عمامته ونقضها وعقله بها وخالد لا يمنعه . وسأله : ما تقول ؟ أمن مالك أم من إصابة ؟ فعند ذلك أجاب خالد : بل من مالى . فأطلقه وعممه بيده ، وهو يقول : « نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا » .

ذلك آخر ما روى من أعمال بلال في خدمة الخلافة ، ولكنه يجمع أعماله كلها وخلائقه كلها في عمل واحد وخلق واحد ، وهو الطاعة الجريئة التي لا تنسى التفخيم والتعظيم إلا في سبيل طاعة أكبر منها وأوجب . فلم يكن أسرع منه بين شهود الموقف إلى محاسبة خالد بأمر الخليفة وأمر الله ، ولم يكن أسرع منه إلى السرور بتفخيمه وتعظيمه حين فرغ الحساب .

كانت طاعته للمرء الذى يطاع والأمر الذى تجب له الطاعة وهى طاعة القوى الشريف ، وليست بطاعة المسخر الضعيف ، وقد عصى سادته والموت جاثم على صدره ، وفرض الطاعة على من يهابه العصاة . فكان سيد المطيعين ، ولا يشرف الإنسان إن لم يكن سيد الأمرين إلا أن يكون سيد المطيعين .

الآذان

أشبه الأشياء بالدعوة إلى الصلاة دعوة تكون من معدن الصلاة وتتم على صوت من أصوات الغيب المحجّب بالأسرار : دعوة حية كأنما تجدد الإصغاء والتلبية من عالم الحياة بأسرها ، وكأنما يبدأ الإنسان في الصلاة من ساعة مسراها إلى 'معه' ، ويتصل بعالم الغيب من ساعة إصغائه إليها . دعوة تلتقي فيها الأرض والسماء ، ويمتزج فيها خشوع المخلوق بعظمة الخالق ، وتعيد الحقيقة الأبدية إلى الخواطر البشرية في كل موعد من مواعد الصلاة ، كأنها نبأ جديد .
الله أكبر . الله أكبر .

تلك هي دعوة الأذان التي يدعو بها المسلمون إلى الصلاة . وتلك هي الدعوة الحية التي تنطق بالحقيقة الخالدة ولا تومئ إليها ، وتلك هي الحقيقة البسيطة غاية البساطة ، العجيبة غاية العجب ، لأنها أغنى الحقائق عن التكرار في الأبد الأبد ، وأحوج الحقائق إلى التكرار بين شواغل الدنيا وعوارض الفناء .

المسلم في صلاةٍ منذ يسمعها تدعوه إلى الصلاة . لأنه يذكر بها عظمة الله وهي لب لباب الصلوات .

وتنفرج عنها هدأة الليل فكأنها ظاهرة من ظواهر الطبيعة الحية تليها الأسماك والأرواح ، وينصت لها الطير والشجر ، ويخف لها الماء والهواء ، وتبرز الدنيا كلها بروز التأمين والاستجابة منذ تسمع هتفة الداعي الذي يهتف بها « إن الصلاة خير من النوم » .

فتخرج كلها إلى الحركة بعد لحظة أو لحيتين ، وتقول كلها إن الحركة صلاة خفية بيد محرك الأشياء ، وإن الصلاة خير من النوم .

وإذا ودع بها الهاتف ضياء النهار واستقبل بها خفايا الليل فهو وداع
متجاوب الأصداء . كأنه ترجان تهتف به الأحياء أو تهمس به في جنح
المساء . وكأنه ينشر على الآفاق عظمة الله فتستكين إلى سلام الليل
وظلال الأسرار والأحلام .

وإنها لتسمع بالليل ثم تسمع بالنهار .

تُسمع والنفوس هادئة كما تسمع والنفوس ساعية مضطربة : توقظ
الأجسام بالليل وتوقظ الأرواح بالنهار ، فإذا هي أشبه صياح بسكينة .
وأقرب ضجيج إلى الخروج بالإنسان من ضجيج الشواغل والشهوات .
حي على الصلاة !

حي على الفلاح !

نعم هذا هو الفلاح جد الفلاح . لأن كل فلاح بغير الإيمان هو
الخسار كل الخسار .

• • •

وما يعرف وقع الأذان من شيء كما يعرف من وقعه بمعزل عن العقيدة
ومعزل عن العادة والسنة المتبعة ، أو كما يعرف من وقعه في بدائه الأطفال
وبدائه الغرباء عن البلاد ، وعن عقيدة الإسلام .

ففي الطفولة نسمع الأذان ، ولانفهمه ولكننا نميزه حين يحيط بنا بين
دعوات هذه الأرض وبين صيحات اللعب وصيحات البيع والشراء :
وتؤخذ به ونحن لاندري بم تؤخذ ، ونود لو نساجله ونصعد إليه ونستجيب
دعائه ، ويفسره المفسرون لنا « بأمر الله » فنكاد نفهم كلمة الأمر ونكاد
نفهم كلمة الله ، ولكننا نحار في البقية ونحيلها إلى الزمن المقبل . . . ثم
نقضى السنوات بعد السنوات من ذلك الزمن المقبل ونحن نتعزى من حيرة

الطفولة بأننا مانزال حائرين ، وإن سميت الحيرة بأسماء بعد أسماء وأطلق عليها عنوان بعد عنوان .

وفي الذكريات أصداء تكمن في النفس من بعيد ويلتفت المرء لحظة من اللحظات فكأنما هو قد فرغ من سماع تلك الأصداء منذ هنية عابرة ، ثم التفت على حين غرة ليرقب مصدر ذلك الصدى الذي سرى إليه .

إن أبقى هذه الأصداء في كل ذاكرة هي صيحة الأذان الأولى التي نهت إليها آذان الطفولة لأول مرة ، ومانزال تبتعد في وادي الذاكرة ثم تتثنى إليه من بعض ثنيتها القريبة ، فإذا المرء من طفولته الباكرة على مدى وثبة مستطاعة ، لو تستطاع وثبة إلى ماض بعيد أو قريب

أما الغرباء عن البلاد وعن عقيدة الإسلام فما يلفتهم من شيء من شعائر العبادة الإسلامية كما يلفتهم صوت الأذان على المنائر العالية ، كيفما اختلف الترتيل والتنغيم .

يقول إدوارد وليام لين صاحب كتاب « أحوال المصريين المحدثين وعاداتهم » إن أصوات الأذان أخاذا جدا ولا سيما في هدأة الليل . ويقول جيراردى نرفال في كتابه سياحة بالشرق : « إننى لأول مرة سمعت فيها صوت المؤذن الرحيم الناصع خامرنى شعور من الشجو لا يوصف . وسألت الترجمان : ماذا يقول هذا الهاتف ؟

فقال : إنه ينادى أن لا إله إلا الله . قلت : فماذا يقول بعد هذا ؟

فقال : إنه يدعو النيام قائلا : يا من ينام توكل على الحى الذى

لا ينام . . . »

وأنشأ الكاتب المتصوف « لافكا ديوهيرن »

La Feadio Hearn رسالة وجيزة عن المؤذن الأول - أي

بلال بن رباح ستأتي ترجمتها بعد هذا الفصل فقال : « إن السائح الذي يهجع لأول مرة بين جدران مدينة شرقية ، وعلى مقربة من إحدى المنائر ، قلما تفوته خشعة الفؤاد لذلك الجمال الوقور الذي ينبعث به دعاء المسلمين إلى الصلاة . . . وهو لاشك يستوعب في قلبه - إذا كان قد هيا نفسه للرحلة بالقراءة والمطالعة - كل كلمة من كلمات تلك الدعوة المقدسة .

ويتبين مقاطعها وأجزاءها في نغمات المؤذن الرنانة ، حينما أرسل الفجر ضياءه المورّد في سماء مصر أو سورية وفاض بها على النجوم . وإنه لسمع هذا الصوت أربع مرات أخرى قبل أن يعود إلى المشرق ضياء الصباح : يسمعه تحت وهج الظهيرة اللامعة ، ويسمعه قبيل غياب الشمس والمغرب يتألق بالوان القرمز والنضار ، ويسمعه عقيب ذلك حين تنسرب هذه الألوان الزاهية في صبغة مزدوجة من البرتقال والزمرد ، ثم يسمعه آخر الأمر حين تومض من فوقه ملايين المصابيح التي ترصع بها تلك القبة البنفسجية فوق مسجد الله الذي لا يزول . ولعله يسمع في المرة الأخيرة عند نهاية التنعيم كلمات مقنّعة بالأسرار جديدة على أذنيه ، فإذا سأل عنها ترجمانه كما فعل جيرادي نرفال أجابه ولاشك بتفسير كذلك التفسير :

يا من تنام توكل على الحى الذى لا ينام عظات جلييلة تعيد إلى الذاكرة تلك الآيات التى ينقشونها فى المشرق على بعض الحجارة الكريمة ومنها « لاتأخذه سينة ولا نوم » . . . فإن كان الترجمان ممن يعون طرفاً من تاريخ الإسلام فلعله ينبته أن المؤذن الأول - أول من رتل الدعاء إلى الصلاة - كان الخادم المقدس الذى اصطفاه نبي الإسلام لهذه الدعوة ،

بلال بن رباح ، صاحب الضريح الذى يشار إليه للسائح فى ناحية من دمشق حتى هذا اليوم .

• • •

وقد لمسنا نحن أثر الأذان البالغ فى روع كثير من السائحين والساحات الذين ينزلون ببلدتنا أسوان خلال الشتاء أو يمرون بها فى الطريق من السودان وإليه .

فإنهم كانوا يصلون إلى أسوان وقد معوا الأذان مرات فى القاهرة والإسكندرية وربما معوه فى غيرها من البلدان الإسلامية ولكنه كان يفاجئهم بجدة لاتبلى كلما طرق أسماعهم بالليل أو النهار - ولا سيما فى أيام الجمعة . وكان من المصادفات الطيبة أن مؤذن الجامع الأكبر بالمدينة كان حسن الصوت منطلق الدعاء يمزج الغيرة الدينية بالغيرة الفنية فى أذانه ، فكان يخيّل إلينا وهم يصغون إليه أنهم يتسمعون هاتفاً من هواتف الغيب بطرق الأسماع فى وقت رتيب ، أو يترقبون طائرا من طوائر الهجرة التى تأتى فى الألوان ولكن كما يأتى كل شىء غريب .

وكان من عادات المؤذنين التى لبثوا يعيدونها فى شهر رمضان إلى عهد قريب أن يدقوا طبول السحور على المنائر العالية فى الهزيع الأخير من الليل . فشكا بعض النازلين بالفنادق القريبة من المنارة وترددوا فى تبليغ شكواهم إلى رجال الحكومة لأنهم حسبوا هذه الطبول شعيرة من شعائر الإسلام ، فلما سأل عنها بعضُ مثقفهم وقيل لهم إنها عادة من عادات البلد وليست شعيرة من شعائر الدين تقدموا برجائهم وقالوا : إننا لانشكو من الأذان لأنه لا يقلقنا ولا يزال يسرى إلينا فى ساعة الفجر كما يسرى الحلم الجميل . ولكننا نقلق من هذه الطبول التى تدق فوق رؤوسنا ، وكنا

نَحْتَمِلُهَا لَوْ عَلِمْنَا أَنَّهَا شَعِيرَةٌ لَا تَبْدِيلَ لَهَا . وَلَكِنَّا عَلِمْنَا أَنَّهَا تَبْدُلُ فِي كُلِّ بَلَدٍ
إِسْلَامِيٍّ عَلَى حَسَبِ عَادَاتِهِ ، وَأَنَّ الْمَدْنَ الْكَبْرَى تَسْتَبْدِلُ بِهَا طَبُولًا صَغِيرَةً
تَدُقُّ عَلَى الْأَبْوَابِ : فَاسْمَحُوا لَنَا أَنْ نَهْدِيَ إِلَى الْبَلَدِ بَعْضَ هَذِهِ الطَّبُولِ .
وَكَانَتْ هَذِهِ الطَّبُولُ مِمَّا يَبَاعُ فِي كُلِّ مَوْسَمٍ لِلْسَّالِحِينَ عَلَى أَحْجَامٍ
مُخْتَلِفَةٍ . لِأَنَّهَا كَانَتْ تُسْتَعْدَمُ فِي عَهْدِ الدَّرَاوِيشِ بِالسُّودَانِ ، إِمَّا لَجَمْعِ
الْجُنْدِ أَوْ لَتَنْبِيهِ الْغَافِلِينَ أَوْ لِلتَّوْقِيعِ وَالتَّنْغِيمِ . وَكَانَتْ مَلَابِسُ الدَّرَاوِيشِ
وَأَسْلِحَتُهُمْ وَأَدَوَاتُ مَعِيشَتِهِمْ مِمَّا يَبِيعُ عَنْهُ السَّالِحُونَ فِي أَسْوَاقِ الْبَلَدِ .
فَتَبَرَّعُوا بِالطَّبُولِ الصَّغِيرَةِ فَرَحِينَ لِأَنَّهَا تَنْقُذُهُمْ مِنْ قَرَعِ الطَّبُولِ حِينَ يَخْتَلِطُ
بَأَصْوَاتِ الْمُؤَذِّنِينَ ، فَيَقْلِقُهُمْ وَيَشُوهُ عِنْدَهُمْ جِهَالُ الْأَذَانِ الْخَفِيفِ عَلَى
أَسْمَاعِ النَّيَامِ .

° ° °

وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الطَّبُولُ وَشَيْكَةً فِي بَدَايَةِ الْأَمْرِ أَنْ تَقُومَ مَقَامَ
الْأَذَانِ فِي دَعْوَةِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الصَّلَاةِ .
إِذْ لَمْ يَكُنِ الْأَذَانُ كَمَا نَسْمَعُهُ الْيَوْمَ مَعْرُوفًا قَبْلَ انْتِشَارِ الْإِسْلَامِ فِي مَكَّةَ
وَالْمَدِينَةِ . وَإِنَّمَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ طَائِفَةً قَلِيلَةً يَدْعُونَ إِلَى الصَّلَاةِ الْجَامِعَةِ
بِالنِّدَاءِ يُسْمَعُ مِنْ قَرِيبٍ ، فَلَمَّا صَرَفَتْ الْقِبْلَةُ إِلَى الْكَعْبَةِ فَكَّرَ الْمُسْلِمُونَ فِي
دَعَاءٍ إِلَى الصَّلَاةِ يَسْمَعُهُ الْمُنْتَشِرُونَ بِالْمَدِينَةِ مِنْ بَعِيدٍ .

وَمِنْ جُمْلَةِ الرِّوَايَاتِ الَّتِي جَاءَتْ فِي طَبَقَاتِ ابْنِ سَعْدٍ وَغَيْرِهَا يُفْهَمُ
أَنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرَ بِالْأَذَانِ يَنَادِي مَنَادِي النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : الصَّلَاةُ
جَامِعَةٌ ! فَيَجْتَمِعُ النَّاسُ . . فَلَمَّا صَرَفَتْ الْقِبْلَةُ إِلَى الْكَعْبَةِ تَذَاكُرُ الْمُسْلِمُونَ
الْأَمْرَ فَذَكَرَ بَعْضُهُم الْبُوقَ وَذَكَرَ بَعْضُهُم النَّاقُوسَ وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ نَارًا تَوْقِدُ
كَنَارَ الْقُرَى ، ثُمَّ تَفَرَّقُوا عَلَى غَيْرِ رَأْيٍ وَمِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ

الخزرجي . . . فلما دخل على أهله فقالوا : ألا نعشيك ؟ قال : لا أذوق طعاماً . فإني قد رأيت رسول الله قد أهمه أمر الصلاة ، ونام فرأى أن رجلاً مَرَّ وعليه ثوبان أخضران وفي يده ناقوس . فسأله : أتبيع الناقوس ؟ فقال : ماذا تريد به ؟ قال : أريد أن أبتاعه لكي أضرب به للصلاة لجماعة الناس . فأجابه الرجل : بل أحدثك بخير لكم من ذلك . تقول : الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله . حتى على الصلاة حتى على الفلاح . الله أكبر . الله أكبر . لا إله إلا الله . ونادى الرجل بذلك النداء وهو قائم على سقف المسجد ثم قعد قعدةً ثم نهض فأقام الصلاة .

فلما استيقظ عبد الله بن زيد من منامه ذهب إلى النبي عليه السلام فقص عليه ما رأى فقال له : قم مع بلال فأتق عليه ما قيل لك وجاء الفاروق بعد ذلك فقص على النبي مناماً يشبه ذلك المنام .

وجرى الأمر في الدعوة إلى الصلاة منذ ذلك اليوم على الأذان كما نسمعه الآن ، وزاد بلال في أذان الصبح « الصلاة خير من النوم » فأقرها النبي عليه السلام ، ويبقى النداء في الناس بالصلاة الجامعة للأمر يحدث فيحضرون له يخبرون به مثل فتح يقرأ أو دعوة يدعون إليها ، وإن كان في غير وقت الصلاة .

ولا اختلاف في صيغة الأذان بين الطوائف الإسلامية جمعاء . . . إلا أن الشيعة يضيفون إليه ، « حتى على خير العمل » مع حتى على الصلاة وحتى على الفلاح . ويردد المالكية التكبير مرتين بدلاً من أربع مرات . ولا اختلاف كذلك في جواز التلحين والترجيع في الأذان ما لم يخل

بنطق الكلمات ومخارج الحروف . إلا أن الحنابلة يعلنون الأذان بغير تلحين ، ويتصرف الأحناف في بعض الترجيعات .
وقد ندب بلال بن رباح للأذان من لحظة الأولى فلم يسمع لأحد أذان قبله ولم يسبقه إلى ذلك سابق في تاريخ الإسلام ، وهو شرف عظيم . لأن محمد بن عبد الله كان إمام المسجد الذي كان مؤذنه بلال بن رباح .

ومن المتفق عليه في أقوال الصحابة أن بلالا كان محب الصوت إلى أسمع المسلمين ، وأنهم كانوا يقرنون دعوته بصلاة النبي بهم فيزيدهم هذا خشوعاً لسمع صوته فوق خشوع .

على أننا نقرأ في أنباء فتح مكة أن رهطاً من المشركين كانوا ينكرون نداءه ويتساءلون : أما وجد محمد غير هذا العبد ينهق على ظهر الكعبة ؟ وكانوا يستكبرون من رجل كائناً من كان أن يعلو ظهر البيت الذي لم يصعد إليه أحد في الجاهلية . فهاهم أن يروا « عبداً » يصعد إليه ويجهر بذلك النداء .

قال بعضهم للحارث بن هشام : ألا ترى إلى هذا العبد أين صعد ؟ فلجأ الرجل إلى حكمة المضطر وقال : دعه : فإن يكن الله يكرهه فسيغيره .

وكان الحارث بن هشام وأبوسفيان بن حرب وعتاب بن أسيد جلوساً بفناء الكعبة يوم أمر النبي بلالا أن يصعد إلى ظهر الكعبة فيقيم الأذان . فقال عتاب : لقد أكرم الله أسيداً ألا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه ، وقال الحارث بن هشام : أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته ،

وأنكر أبو سفيان ما سمع أو قيل في بعض الروايات أنه جمع قائلاً :
لأقول شيئاً . ولو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحياء .

وقبل أن نحيل هذا الإنكار إلى شيء يؤخذ مأخذ النقد ينبغي أن نذكر
أن ذلك الوصف جاء من المشركين الذين كانوا خلقاء أن ينكروا أول
أذان يرتفع في سماء مكة ولو ترغمت به الملائكة . جاء به سواهم
الأطيار ، وأنهم سمعوه زعيقاً و « نهيقاً » كما قالوا لأنهم سمعوا شيئاً لا يطبقونه
ولا يسترخون إليه . وكانت بهم عنجهية السادة في النظر إلى العبيد ،
وكان لبلال عندهم وتر معروف بمن قتل من سادات مكة في غزواته
مع النبي عليه السلام .

فإذا رددنا إعجاب المسلمين بصوت المؤذن الأول إلى الخشوع ثم إلى
ذكر النبي الحبيب . ورددنا كره المشركين إياه إلى النفرة ثم إلى العنجهية
والعداء . فقد بقى شيء واحد يتفق عليه هؤلاء وهؤلاء وهو جهازة الصوت
وابتعاد مداه في أجواز الفضاء . ولا حاجة بنا إلى العناء في الموازنة بين
خشوع المسلمين وعداء المشركين لنقول إن اختيار النبي إياه يدعوه ويدعو
المسلمين دعوة عامة يسمعها كل يوم خمس مرات - هو الشهادة لصوت
المؤذن الأول بالسلامة من النفرة والنشور المعيب . فما عهد محمد عليه
السلام خاصة إلا أنه كان يحمد المنظر الحسن . وكان ينكر كل نكير
ويستريح إلى كل جميل .

المؤذات الأولى

كتب عن الخلفاء الراشدين وكبار القادة والولاة من صحابة النبي عليه السلام كلام كثير باللغات الأوربية في أثناء الكتابة عن تاريخ الإسلام . ولكن الذى كتب عن الصحابة ممن لم يتولوا الحكم ولا اشتركوا في السياسة العامة - كبلال بن رباح - جد قليل ، وبين هذا القليل الذى كتب عن بلال خاصة فصل في اللغة الإنجليزية للأديب القصصى لفكاديو هيرن Latcadio Hearn الذى عمل حيناً في الصحافة الأمريكية وقضى زماناً في جزر الهند الغربية التابعة لفرنسا ثم جال بين بلاد الشرق واستقر باليابان وبني فيها بزوجة يابانية ومات هناك سنة ١٩٠٤ بعد أن قضى حياته الأدبية كلها هائماً بنفحات الشرق الروحية سواء هبت عليه من بلاد العرب أو من الصين أو اليابان .

ولاشك أن ترجمة هذا الفصل إلى العربية ترده إلى اللغة التي هي أحق به وأولى . وتعد مناسبة نقله إلى العربية سانحة كل السنوح في صدد الترجمة لبلال رضى الله عنه برسالة مستقلة به مقصورة عليه . وهو عدا ذلك فصل قيم يفيض بالعطف الإنساني والروح الشعرية والفكاهة الأدبية ، ويضيف كثيراً إلى علمنا بأثر الأذان الإسلامى في نفوس الأدباء الغربيين ، ولا سيما الأدباء من طراز هيرن الذين أظمتهم الحضارة العصرية وتشوقت نفوسهم إلى الرى الروحاني من ينابيع أخرى غير ينابيع أمريكا وأوربا .

وقد مهد هيرن لفصله عن « المؤذن الأول » بأبيات الشاعر إدوين أرنولد Edwin Arnold التى يقول فيها مخاطباً العزة الإلهية :

« لو أن عابديك اليوم على الأرض طاف بهم طائف من الفناء - فجاءة وصمت كل مؤذن يرفع الصوت بالتكبير في سكينة السماء - لما

خلت الدنيا بعد هذا من آيات تشهد بوجودك على الأرض وفي أغوار الماء . نعم . . . ولو ذهبت هذه وذهبت الأرض معها لبقيت لك آيات في أعالي السماء أعظم وأسمى . إذ كل شارقة فوقنا من تلك الشمس التي تشتعل إلى مطلع النهار وتلك الكواكب التي يعود بها الليل كل مساء - هي يارب « دراويشك » التي تدور في حلقة الذكر حول عرشك الوضاء » .

ثم قال هيرن : « إن السائح الذي يهجم لأول مرة بين جدران مدينة من مدن الشرق على مقربة من إحدى المنائر على المساجد الجامعة - قلما تفوته خشعة الفؤاد لذلك الجمال الوقور الذي ينبعث به دعاء المسلمين إلى الصلاة ، وهو لاشك يستوعب في قلبه - إذا كان قد هباً نفسه للرحلة بالقراءة والمطالعة - كل كلمة من كلمات تلك الدعوة المقدسة ، ويتبين مقاطعها وأجزائها في نغمات المؤذن الرنانة حينما أرسل الفجر ضياءه المورّد في سماء مصر أو سورية وفاض بها على النجوم . وإنه ليسمع هذا الصوت أربع مرات أخرى قبل أن يعود إلى المشرق ضياء الصباح : يسمعه تحت وهج الظهيرة اللامعة ويسمعه قبيل غياب الشمس والمغرب يتألق بألوان القرمز والنفزار ، ويسمعه عقيب ذلك حين تنسرب هذه الألوان الزاهية في صبغة مزدوجة من البرتقال والزمرد . ثم يسمعه آخر الأمر حين تومض من فوقه ملايين المصابيح التي ترصع بها تلك القبة البنفسجية فوق مسجد الله الذي لا يزول ، ولعله يسمع في المرة الأخيرة عند نهاية التنغيم كلمات مقنّعة بالأسرار جديدة على أذنيه . فإذا سأل عنها ترجمانه كما فعل جيراردي نرفال أجابه ولاشك بتفسير كذلك التفسير : يا من تنام توكل على الحى الذى لا ينام . . . عظام جليلة تعيد

إلى الذاكرة تلك الآيات التي ينقشونها في المشرق على بعض الحجارة
الكريمة ومنها « لاتأخذه سنة ولا نوم » . . . فإن كان الترجمان ممن يعون
طرفاً من تاريخ الإسلام فلعله ينبئه أن المؤذن الأول - أول من رتل الدعاء
إلى الصلاة - كان الخادم المقدس الذي اصطفاه نبي الإسلام لهذه
الدعوة - بلال بن رباح - صاحب الضريح الذي يشار إليه للسائح في
ناحية من دمشق حتى هذا اليوم .

أما بلال هذا فكان أسود إفريقيا من أبناء الحبشة قد اشتهر بقوة يقينه
وهو يتخذ دين الإسلام ، وبغيرته على الدعوة النبوية وجمال النغم في
ترجيع صوته - ذلك الصوت الذي تناوله ومد فيه وكرره كل مؤذن في
الإسلام منذ أكثر من ألف ومائتي عام .

وقد رجّع بلال أذانه قبل أن ترسم في الذهن صورة المنارة الأولى ،
وقبل أن يؤثر القوم اختيار المؤذنين من العميان مخافة أن يرمق المؤذن بعينه
منظراً محرماً وهو يطل من علي على سقوف المدينة .

واليوم ترتفع إلى السماء منائر لاعدادها لها في كل موطن من مواطن
الإسلام حتى واحات الصحراء ، وقد تقوم على بناء بعضها أيد جاهلة
بميزان البناء فيخيل إلى من يراها أنها تتلوى من الوجد ، كمثدنة
« أوجلة » التي رآها فكتور لارجو Lergau في سنة ١٨٧٧ .

أما الكلمات التي يرددوها المسلمون في أنحاء عالم الإسلام من حيث
تقوم بني القرميد التي ترتفع على قبور الصحراء إلى تلك المنائر السحرية
الحاملة التي ترتفع على مسجد « أجرا » عند ضريح « تاج محل » بالهند -
فهى بنصها وفصها تلك الكلمات التي ترمم بها صوت بلال المكين .
ولا تزال للمؤذن شروط ترعى حتى اليوم ليسمع له بأداء الأذان .

فعليه أن يحفظ القرآن وأن ينزه اسمه وسمعته عن كل سوء . وأن يكون له صوت واضح جهير وضجة فصيحة ومخارج للحروف صحيحة . ولكن شروط الصوت الحسن التي كانت تطلب من المؤذن في صدر الدعوة الحمديدية والمسلمون على ذكر من صوت بلال قد كانت أندر وأصعب مما اكتفى به بعد ذلك . وقد روى الشاعر الفارسي الأشهر مصلح الدين السعدى في كتابه بستان الورد غير نادرة واحدة تدل على آراء أبناء عصره فيما يرجع إلى اختيار المؤذنين وقراء آى الذكر الحكيم .

قال فى بعض تلك النوادر إن مؤذناً فى سنجار تعود أن يؤدى الأذان أداءً صحيحاً ولكن بصوت كرىه إلى كل من سمعه . وكان صاحب المسجد أميراً عادلاً لايسىء فى عمل من أعماله . فلم يشأ أن يخرج قواد المؤذن المسكين ، وخاطبه على نحو يرضيه فقال له : ياسيدى . إن لهذا المسجد مؤذنين أقدمين يعطى كل منهم خمسة دنائير . فهل لك فى عشرة دنائير تأخذها أنت على أن تترك لهم مهمة الأذان فيه ؟ . . . فقبل الرجل عرض الأمير وغادر المدينة إلى حيث شاءت له المقادير .

إلا أنه لم يلبث غير قليل حتى قفل إلى الأمير قائلاً : لقد ظلمتني بامولاي إذ قد زينت لى أن أترك هذا المسجد من أجل عشرة دنائير . فإنهم قد عرضوا علىّ عشرين ديناراً حيث كنت على أن أفارقهم فأبيتها . . . فابتسم الأمير وقال : لا يخذعوك إذن . . . فأبى لأحسبهم معطيك خمسين ديناراً أو يزيد على ذلك إذا أصررت على البقاء هناك !

وفى الكتاب نادرة أخرى لا تنقل عن هذه فى طرافتها . يزيدنا فيها لها أن نذكر أن الأسلوب العربى المأثور فى تلاوة القرآن يكاد يعلو على كل أسلوب معروف فى التلاوات الدينية . وخلاصة النادرة أن قارئاً من

حفاظ الكتاب كان يجود الآيات بصوت غير جيد . فمر به رجل فطن
وسأله : كم أجرك على هذه القراءة ؟ فقال الحافظ : لا شيء ! قال
الرجل : وفيم إذن عناؤك هذا ؟ قال : حبا لله ! قال الرجل الفطن :
حبا لله إذن لا تقرأ برحمتك الله .

* * *

وبدا بلال حيانه عبداً لأنه كان وليد جارية حبشية ، ولم يعرف عن
نشأته في الطفولة غير التزر اليسير . ومن وصف سيروليام موير إياه يظهر أنه
كان فاحم السواد كثيف الشعر وكانت لوجهه ملامح الزنوج ، وأنه كان
طويلاً أجناً كأنه الجميل ، لا يروق النظر ولكنه شديد الأسر مفتول الجسد
متين الأعصاب .

وقد كان لدعوة محمد الأولى أثر عميق في قلوب عبيد مكة ، لأن
هؤلاء القوم الغرباء في ربة العبودية بين أناس غير أهلهم قد تلقوا
ولا رب دعوة النبي إلى الأبوة العليا التي تكلاً الناس جميعاً كما يتلقى
الجريح بلسم الشفاء والحزين سلوة العزاء .

ولعل بلالاً كان أول من دان بالإسلام من بني جلدته ، ولذلك قال
النبي عنه إنه أول ثمرة من ثمرات الحبشة ، ولعل العبد الصغير قد تلقن من
والدته السوداء شيئاً من تلك الخواطر الفجة التي شاعت في الحبشة باسم
الديانة المسيحية في القرن الرابع فهبات ذهنه لقبول وحدانية الإسلام .

وما هو إلا أن بدأت فترة الاضطهاد حتى انصب أشده وأقساه على
هؤلاء العبيد . فقد كانت سنة العرب منذ عهد بعيد أن يحمي الرجل
ذوى قرباه ولو كلفته حمايته بذل الحياة . فمن سفك دم عرى فهو غير آمن

أن يرتد عليه أهله بالثأر وأن يستتبع ذلك حرباً سجالاً بين العشيرتين إلى زمن طويل . ومن ثم كان محمد وصحبه الأحرار يأمنون بعض الأمان على أنفسهم من سطوة التنكيل العنيف . ولم يكن للعبيد مثل هذه الحماية ، فتعاورتهم الأيدي بالضرب وتلقوا نذر الموت وذاقوا أمر العذاب معرضين لنيران القيظ في شمس الجزيرة العربية السافعة . فكانت غواية الماء البارد والظل الوارف والطعام الشهى تحت هذا العذاب الذي يضاف إليه عذاب الجوع والظما أشد من أن تدفعها غزية أولئك المساكين فمازالوا واحداً بعد واحد يتفوهون بالعبارات التي كانت تملأ عليهم سباً لنبيهم ولو خرجت من الشفاه دون القلوب ، وجعلوا يقسمون باللات والعزى على صدق مايقولون ، وطالما عاد بعضهم فبكى ندماً على ما فرط منهم في تلك المحنة النكراء .

ولكن النبي قد استنزل لأولئك المساكين عزاء وافياً بما ذكره القرآن عنهم ، حيث جاء فيه : « إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون . من كفر بالله من بعد إيمانه ، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم » .^(١)

وقد ظل بلال وحده ثابت القلب واللسان فلم يصبأ ولم ينل من عقيدته ألم الضرب ولا حر الظما ولا طول التعريض للشمس على بطاح مكة المتلهبة ، وعجزت كل هذه المحن أن تثني عزيمته الحديدية ، فلم يكن له جواب على كل أمر يتلقاه من معذبيه إلا أن يردد قوله : أحد ! أحد ! مشيراً إلى وحدانية الله الذي ليس له شريك .

هذه الفترة في حياة بلال أيام دخوله في الإسلام هي التي اختارها

الشاعر الفارسي فريد الدين العطار للإشادة بها في كتابه منطق الطير ، فقال : « إن بلالا قد تلقى على جسده الهزبل ضربات العصي من الحشب ، والسياط من الجلد ، فتمزق إهابه وسال الدم من جراحه ولم يمسك قط عن توحيد الله الذي لا إله غيره » .

وانفق ذات يوم - والحبشي المسكين يتلظى من ألم ذاك العذاب - أن عبره رجل نحيف البدن صغير القد جميل الملامح واسع الجبين فشهد فيمن يشهدون ثبات بلال وشدة عذابه .

وكان ذاك الرجل النحيف هو التاجر عبد الله بن عثمان أبي قحافة ، ويعرف في التاريخ الإسلامي باسم أبي بكر صديق النبي الحميم وزميله في ذلك الكهف الذي تقول الرواية إن العناكب نسجت على مدخله خيوطها لتخفي اللاجئين إليه عمن يتعقبونها ، ويدعى أبو بكر أيضاً بالصديق أي المخلص الوفي ، وكان أبا السيدة عائشة التي قدر لها أن تقترن بالنبي وقدر لأبيها أن يخلف النبي على رعاية شأن المسلمين بعد وفاته ، وكان إلى ذلك الحين قد أنفق كثيراً من ثروته التي تبلغ أربعين ألف درهم في شراء العبيد الذين سيموا العذاب على أيدي سادتهم من أجل دخولهم في دين الإسلام ، ومعظمهم رجال مهازيل أو نساء ، فكان أبو قحافة يؤاخذه لأنه ينفق ماله في إعتاق النساء والضعفاء ويقول له : هلا أنفقت في إعتاق الأقوياء الذين يشدون أزرك ويدرعون عنك عدوك ؟ وكان أبو بكر يحبه : كلا . يأبى . إنما أريد بهم وجه الله . ويقول الرواة إن هذا البذل السخي في سبيل التقوى قد أفقر الرجل حتى لبس الثياب الخشننة من شعر المعز الذي يلفق بالسلا .

فلما شهد بلالا في ذلك العذاب لم يطل صبره على رؤيته بتلك الحال

وأخذ لتوه يساوم أمية بن خلف وأبى بن خلف في ثمنه فباعاه بعباءة وعشرة دنانير.

وقليلاً ما كان يخطر على بال أحد من شهود تلك الصفقة ، أن يوماً من الأيام سيأتى على أمية وابنه يسألان فيه الرحمة من عبدهما الذى ضنا عليه بكل رحمة فلا ينالانها . فما انقضت عشرين على ذلك اليوم حتى ظفر بلال بصاحبيه وسنحت له فرصته بعد وقعة بدر الحامية : ف وقعت عليهما عيناه بين أسرى قريش ، وشفى قلبه أن ينظر إليهما وهما يذبحان على مشهد منه ، لأن الإسلام لا يأمر الذين يدينون به أن يجزوا الشر بالخير . وقد كان بلال فى الحقيقة أول عبد قيم أطلقه أبو بكر ، فأرسله عتيقاً لوجه الله .

وكان بلال رجلاً قوياً ، فلا يفهم وصفه بالهزال فى قصيدة الشاعر الفارسى إلا على معنى الهزال الذى توصف به الطبيعة البشرية بالقياس إلى قوة الروح .

ولم يلبث لسان الكذب والوشاية أن قال قوله فى السبب الذى بعث أبا بكر إلى شراء الحبشى المعذب ، فزعم من زعم أنه توخى الفائدة ولم يتوخى التقوى والصلاح ، وكانت هذه الأكذوبة خليقة أن تسرى مسراها فى البيئة التى عهدت ذلك التاجر الورع زماناً وهو الأريب الخبير بتصرف التجارة ، ولكن محمداً كان ينكر ما يلفظون به ويوسع القائلين به تأنيباً وملامة ، وفى ذلك يقول الكتاب من سورة الليل : « والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى ، وما خلق الذكر والأنثى . إن سعيكم لشتى ، فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى ، وما يغنى عنه ماله إذا

تردى ، إن علينا للهدى ، وإن لنا للآخرة والأولى . فأنذرتكم ناراً
تَلَظى ، لا يصلها إلا الاشتى ، الذى كذب وتولى ، وسيجنها الأتقى .
الذى يؤتى ماله بتركى ، ومالأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه
ربه الأعلى ، ولسوف يرضى .^(١)

ومن ثم أصبح بلال خادماً أميناً لمحمد « عليه السلام » وكتب له أن
يساهم بنصيب فى نشر دعوة الإسلام .

وتزعم بعض الروايات أن بلالا عاد بعد هجرة النبي فوقع فى أسر
قريش فعذبوه وضاموه ، ولكنها رواية لا يوثق بها فى رأى المراجع التى
تعتبر حجة فى تاريخ الدعوة الإسلامية ، وإنما نلتقى ببلال مرة أخرى بعد
عُتقه فى المدينة حيث كان المؤذن الأول بعد الاتفاق على الأذان .

• • •

ولم يكن الأذان معروفاً فى مستهل الدعوة الإسلامية حين كان المؤمنون
فئة قليلة تقيم إلى جوار نبيها ، وإنما كان الأذان صيحة مسموعة ينادى
بها المنادى إلى الصلاة الجامعة .

ثم عرف الأذان بعد بناء مسجد المدينة وتحويل القبلة من بيت
المقدس إلى مكة وكعبتها . إلا أن بيت المقدس لم يزل له شأن فى
المأثورات الإسلامية ولم يزل عزيزاً فى قلوب المسلمين .

ألا يذكر الذاكرون من علامات الساعة الكبرى أن عيسى بن مريم
سيقبل عند حلول الساعة إلى مسجد بيت المقدس قبيل صلاة الفجر
فيشرق المسجد بطلعته ويتقدم إلى محراب الإمام فيبته أولئك الذين
يزعمون أنهم من أتباعه حين يعلن بينهم شهادة أن لا إله إلا الله وأن
محمداً رسول الله ؟

أما كيف خطرت فكرة الأذان فقد كان ذلك بتوفيق عجيب .
وفحواه أن النبي حين فرغ من بناء مسجده - الذي يعد على زهادة بنيانه
مثالاً للأسلوب العربي في البناء - تين على الأثر أن دعوة المسلمين إلى
الصلاة على النحو الذي اتبعوا قبل ذلك ليست مما يوائم أحوال
المسلمين في ذلك الحين ! لأنها خلو من ذلك الجلال الذي لاغنى عنه في
إقامة الفرائض العامة والشعائر العلنية .

وخطر للنبي في بداءة الأمر أن يتخذ بوقاً للدعوة إلى الصلاة ، ولكنه
لم يشأ أن يحول القبلة عن بيت المقدس ثم يتخذ لدعوة الصلاة أداة كان
يستخدمها اليهود في بعض الصلوات .

ثم خطر له أن يتخذ للدعوة ناقوساً يدق في ساعات معلومات ،
ولكنهم لم يجدوا في المدينة من يصنع الناقوس المطلوب .
وإنه ليوشك أن يتخذ للدعوة ناقوراً من الخشب إذ سنحت فكرة
الأذان لبعض الصالحين في رؤيا المنام .

فقد رأى ذلك الرجل الصالح فيما يرى النائم انه لقي على مقربة من
داره - وهو يسرى في ضوء القمر - رجلاً طوالاً في ثياب خضر بيده
ناقوس جميل ، وبدا له أنه قارب الرجل الطوال يسأله أن يبيعه
الناقوس . فتبسم الرجل الطوال وراح يسأله : ولأى شيء تريده ؟ فقال
له : إنما أشتريه للنبي عليه السلام ليدعوه به المسلمين إلى الصلاة .

قال الرجل الطوال . وكأنه يزداد في مقاله طولاً : كلا . بل أخبرك
بما هو أصلح وأجدى . فخير من ذلك أن ينادى مناد بالدعاء إلى الصلاة
من سقف المسجد كما أصنع . وانطلق في ندائه بصوت رنان عجيب

سماوى الجلال يبعث الوجل الأقدس فى فؤاد سامعه ، وهو يردد ذلك
الأذان كما يردد اليوم من شاطئ إفريقيا الغربى إلى تخوم هندستان .

الله أكبر . .

الله أكبر . .

أشهد أن لا إله إلا الله . .

أشهد أن محمداً رسول الله . .

حتى على الصلاة . .

حتى على الفلاح . .

لا إله إلا الله .

فهب من رقاده والنعم العجيب يتردد فى أذنيه ، وبادر إلى النبى
فقص عليه رؤياه ، فسمعها منه النبى كما يسمع الرؤيا الصادقة التى تأتى
بالحداية من الله ، وتذكر تلك الهبة الصوتية النادرة التى خص بها مولاه
الوفى بلال ، فأمره أن ينادى إلى الصلاة بتلك الكلمات التى سمعها المسلم
الصالح فى منامه ، وكان الليل فى هزيعه الأخير فوعى المؤذن الأول
واجب صناعته الجديدة قبل مطلع الفجر . وما هو إلا أن طلعت بشائر
النور الأولى حتى نهض أهل المدينة من نومهم على صوت الحبشى الساحر
يردد الأذان من مشرف عال يجوار المسجد . فكان ذلك فاتحة تاريخ
المنازة الجميلة التى تتسم بها قبل غيرها ملامح العمارة فى المدن الإسلامية ،
وكان مصعد بلال فى تلك الليلة إلى الشرفة المضاءة بنور الكواكب على
سقف المدينة هو أول خطوة على سلم المنازة الباقية قبل ألف ومائتى عام .

فى خلال تلك القرون جميعاً لم يعرف الإسلام يوماً واحداً لم ترتفع فيه صيحة الأذان إلى الله .

ولا تزال نفحات الأذان تعلم طريق الساعات لسكان مدائن شتى لأعداد لها : وفى المآثورات أنها ستكون علامة للساعة التى تقوم فيها القيامة ويظهر فيها المهدي المنتظر - مسيح الديانة الإسلامية - فيعلن الأذان بصوت جهورى يدوى فى أنحاء العالم بأسره ! وما برحت دعوات الصلاة تستجاب فى العالم الإسلامى بدقة يدهش لها السّياح ويعجبون .

وقد اشتهرت هذه الدقة عن المسلمين فى استجابة داعى الصلاة حتى استخدمت أحياناً فى الإضرار بهم والإغارة عليهم . فاتفق فى نيسابور - تلك المدينة المحببة إلى عطار الروح الشاعر المعروف باسم العطار - أن الأذان أعلن لأول مرة غدراً وختلاً للإيقاع بمن يستجيبون إليه . إذ حدث فى السنة الثامنة من القرن السابع أن أغارت على المدينة جموع جنكيزخان ، وكان من عادة هذه الجموع التى درجت على الاستئصال والتخريب عادة فريدة بين الأمم فى قسوتها وغدرها ؛ وهى أن يعودوا إلى المدينة فجأة بعد تخريبها ليعملوا السيف فيمن رجع إليها من أهلها مطمئناً إلى جلاء العدو عنها أو فيمن يقبلون على الأنقاض المحترقة ليستخرجوا نفائس الاعلاق منها . فلما عادوا إلى نيسابور على هذا النحو أمر الزعيم المغولى بإقامة الأذان فأقبل إليه بهذه الحيلة كثيرون ممن كانوا يعتصمون بالخائى والزوايا المهجورة ، وصدق المؤرخ الفارسى حين قال فى وصف هذه الجموع : « إنهم يقصدون إلى إبادة نوع الإنسان وفناء العالم ولا يقصدون إلى السيادة أو الغنيمة » .

إن جو المأثورات - بما يحفه من الأشعة والمالات - ليرن فيه صوت بلال أبدأ كما رنّ في الحلم صوت ذلك الغرب في الأكسية الخضر منبعثاً من عالم فردوسى إلهى مسرل بالضياء .

وليس في مقدورنا بعد انقضاء تلك المئات من السنين أن نعرف حقيقة صوت المؤذن الإفريقى ولأن نقوم مزاياء الموسيقى التى لاشك فيها . ولكننا إذا صح لنا أن نستدل بما قيل فى وصفه على طبقته الموسيقية فالأغلب الأقرب إلى الحقّة أنه كان من طبقة « الباريتون » المعروفة لدينا بالامتداد والغزارة خلافاً للنغمة العربية التى تعرف بشيء من الحدة والنغمة .

ولا يعوزنا السبب لأن نشك فى أن أحداً من المشهورين بين أرباب صناعة الغناء فى الجاهلية كان من ذلك العنصر - العربى - الذى وصفه سائح فرنسى فقال : إنه شعب صحاب ، وقد أنبأنا الدكتور بيرون Perron فى كتابه الممتع عن النساء العربيات الذى نشر بالجزائر سنة ١٨٤٨ أن معظمهم كانوا عبيداً وأن جميع العبيد قبل الدعوة المحمدية كانوا على وجه الإجمال من الحبش أو الزنوج ، ولا يبعد أن تكون القيتان المشهورتان باسم جرادنى عاد - ولا يزال لأغانيهما بقية مروية - فتاتين حبشيتين .

وتقول الأخبار إنهما كانتا لعبد الله بن جدعان من سلالة عاد ، وإن فترات التاريخ العربى لم تخل من عتقاء أو خلاسين نبغوا فى الشعر أو فى الفن أو الغناء ، ومن هؤلاء الأغربة السود ذلك الأسود الذى نظم إحدى المعلقات ورويت له أغان وأناشيد بين أحسن القصيد ، ونعنى به عنتر بن شداد .

ومنهم خفاف الشاعر الفارسي ابن عم الخنساء ، والشنفرى الذى لم يكن حظه من الشعر بالقليل ، وقد شهر الحرب وحده على قبيلة كاملة ثاراً لحميه الذى قتلوه لأنه ارتضى لبنته زوجاً من غير أكفائها وأقسم لا يهدأن أو يقتل منهم مائة بقتيله . فأصاب تسعة وتسعين منهم ثم أصابوه وقطعوا رأسه وجاء رجل منهم فركله بقدمه العارية فجرح فى قدمه وفسد جرحه فمات . فقليل إن الشنفرى بر بقسمه وهو قليل .

ويروى عن النبى أنه ود لو شهد عنتره بن شداد . ولعله لم يكن يود ذلك إعجاباً بشعره كما وده لعلمه يجدوى ذلك الفارس الشاعر لدعوته ، إذ ينجح إليها ويقود لها عتقاء الصحراء جميعاً تحت لواء نبى يبشر بالمساواة .

وطوت روح الإسلام شيئاً فشيئاً قصيد الصحراء الجميل بالوانه الساخنة التى تشبه ألوانها ، وحرارته التى تشبه حرارة رمالها ووقدته التى تشبه وقدة سمائها ، ولكن الأغربة لم تزل تغنى وإن كفت عن نظم المعلقات ! ولم يكن بالقليل عدد المغنين السود أو الخلاسين الذين نبغوا فى القرون الثلاثة الأولى بعد ظهور الإسلام ، فسعيد بن مذحج الذى صادر الخليفة عبد الملك ماله لأنه فتن أبناء الأشراف بسحر غنائه فأجزلوا له العطايا وضيعوا تراثهم عليه كان عبداً من عبيد مكة ، وأبو محجن نصيب بن الزنجى قد لقي الحظوة من أمراء كثيرين وحكام مختلفين منذ أيام عبد الملك إلى أيام هشام . وقد حشا يزيد الثانى فاه درأى يوم من الأيام .

وأبو عباد معبد - أمير الغناء فى عصره - أطرب ثلاثة من الخلفاء ، وغشى على يزيد من الطرب وهو يستمع لغنائه ، ومنحه خلفه اثني عشر

ألف دينار جائزة واحدة . ومشى في جنازته الوليد الثاني هو وأخوه في ثياب السواد حدادا عليه ، وكان قد مات في قصره .

ويبدو أن سلامة الزرقاء - التي بلغ ثمن القبلة منها أربعين ألف درهم - كانت من سلالة السود ، وكانت سلامة القس وحبابة صاحبتهما من جوارى المدينة المولدات ، وتروى قصة من أشجى القصص العربية عن غرام يزيد بحبابة هذه وموته حزناً عليها .

والأدلة كثيرة على أن أصوات الجوارى السود وأساليبهن في الغناء كان لها سحر ملحوظ في نفوس ساداتهن المسلمين ، كما يؤخذ من مطالعة أدباء العرب والفرس في بعض الأحيان . وقد قيل إن إسماعيل بن جامع أعظم المغنين في عصر الإسلام الذهبي أعطى جارية سوداء أربعة دراهم لينقل عنها نغماً غريباً ، ممعها تترجم به وهي تحمل الجرة على رأسها . ثم وضع في ذلك النغم دوراً ممع الخليفة هارون الرشيد فقال إنه لم يسمع مثله قط في جماله وابتكاره وأجازه عليه بأربعة آلاف دينار ومئزر نفيس الأثاث والرياش .

ويقص علينا السعدي - الشاعر الفارسي - أنباء أخرى نعلم منها أن أرباب الغناء من السود قد بقيت لهم منزلتهم في هذا الفن إلى ما بعد صدر الإسلام ، ومن تلك الأنباء قصة رواها في كتابه بستان الورد من أحوال الدراويش وكان لها شاهد عيان .

قال :

« خرجت إلى الحجاز في رفقة من الشبان الأذكياء ، وكانوا يترغمون في الطريق بين حين وحين ببعض الأشعار الصوفية ، وكان بيننا رجل من الأتقياء ينكر سلوك الدراويش لأنه يجهل حالهم ولا يعرف

نجواهم ، فلما بلغنا نخل بنى هلال برز لنا من خيام بعض العرب غلام أسود يتغنى بصوت يستنزل الطير من السماء ، ونظرت إلى جمل صاحبنا التقي قد أخذ الصوت الساحر فألقى براكبه إلى الأرض وهام في الصحراء ، فصحت بالرجل : يا هذا ! إن صوت هذا الفتى قد عمل في الحيوان الأعجم ولم يعمل فيك » .

وذاك أنه كان من عادات العرب القديمة أن يحفزوا الإبل إلى المسير والصبر على السفر بألحان الحداة ، وقد روى جنتيوس Gentius معقباً على هذه الواقعة في ترجمته لبستان الورد (امستردام ١٦٥٤) قصة أخرى أعجب من الأولى فقال : « إن مؤلفاً من الثقات نزل بضيافة رجل في الصحراء ضاعت منه جميع إبله ، فجاءه عبد زنجي وسأله أن يتشفع له عند مولاه في ذنبه ، فلما حضر الطعام أبى المؤلف الضيف أن يمد يده إليه أو يصفح صاحب الدار عن ذنب مولاه . فقال له صاحب الدار : إن هذا العبد خبيث ضيع عليه ماله ورده إلى أسوأ الحال ، وقد منحه الله صوتاً جميلاً فأقنته حادياً لإبلى فأجهدتها بسحر حدائه حتى قطعت في يوم واحد مسيرة ثلاثة أيام . ولكنها لم تلبث أن نفقت جميعاً ساعة وضعت عنها أحمالها لفرط ماناها من الإعياء ، وقد وجب لك حق الضيف فتقبلت شفاعتك وأعفيت هذا العبد الخبيث من الجزاء » .

ومن النوادر التي تروى في هذا المعنى وتدل على شأن الحداة في المشرق - نادرة حكاهما جلال الدين في تاريخه حيث قال إن المنصور أجاز سالماً الحادى بنصف درهم لأنه أطربه بحدائه حتى أوشك أن يسقط عن جملة ، فقال سالم : لقد حدود هشام فأجازني بعشرة آلاف ! » .
فما لاشك فيه أن المغنين في الجاهلية وفي الصدر الأول من الإسلام

كانوا على الأكثر من العبيد والمولدين . وأن هؤلاء العبيد السود كانوا من ذوى الهبات الصوتية العجيبة وبلغوا الرفعة بمهارتهم فى الصناعات الموسيقية ، فلا داعى للشك فى ملكة الغناء عند بلال ولا فى قيام المآثرات عن صوته الحسن على أساس صحيح ويبقى أن ننظر هل هو الذى أبدع لحن الأذان الذى مضى عليه المؤذنون من بعده أو أنه قد أدى الأذان كما أمر به وأوحى إليه .

وعلىنا أن نذكر « أولاً » أن العرب الأقدمين مع حساسيتهم الموسيقية لم ترتفع الموسيقى بينهم فوق طبقة التجويد الصوفى إلا فى القرب النادر ، وغاية ما بلغوه فى هذا الباب يشبه الصدحات الكورسيكية الحديثة بما فيها من الزركشة والتزديد على هوى المغنى أو على هوى السامعين . فتعاد الكلمة الواحدة مرة بعد مرة بتمويه وتجويد ومد وقصر يطول التكرار فيه حتى ليستغرق إلقاء القطعة الواحدة من النظم بضع ساعات . ولا تزال هذه التزعة فى الغناء باقية على حالها بين العرب المحدثين ، فقد صدق بيرون Perron حين سأل : أى سائح فى مصر لم يسمع كلمة ياليل تعاد مرة بعد مرة ونصف ساعة أو تزيد ؟

والأغلب أن الأنغام العربية لم تكن لتزيد فى عهد الدعوة المحمدية على ثلاثة أنواع متميزات : وهى ما يسمى بالنغم البسيط ويعنى به فى مقام الوقار ومعارض البطولة أو السهولة كغناء الحرب والحداء . وما يسمى بالنغم المركب وهو يتألف من حركات عدة وترجيعات صوتية كثيرة ، وما يسمى بالحفيف وهو يستخف السامع إلى الطرب ومهزه ويحرك أشجانه ويخرجه عن الوقار .

ولما كان بلال عبداً وكان ولا ريب فى بعض أوقاته يسوق الإبل فقد .

كان على الأرجح يتغنى بالحداء ويعالج النغم البسيط . ولكنه - بسليقته الإفريقية التي طبع عليها أبناء جلدته - ربما وجد من وقته متسعاً لترديد الأصوات المركبة واستطاع من ثم أن يلقي الأذان في الحانة المعروفة . فلا يخفى أن النغم الذي يسمع في المنام قلما يثبت في الذاكرة ، وأن النغم الذي سمعه المسلم الصالح من الطيف الغريب صاحب الثياب الخضرة يصعب أن يعلق بذاكرته ويجرى على لسانه وهو يقص رؤيته على النبي (صلوات الله عليه) .

فلا يبعد إذن أن يكون بلال قد سمع الأذان وصاغ منه اللحن الذي أوحته إليه سليقته الإفريقية الأبدية فأقره النبي عليه كما أقره على ماأضافه بعد ذلك إلى أذان الصبح حيث زاد عليه « الصلاة خير من النوم » . ولاجرم يقره محمد على أسلوب ترنيله وهو الذي كان يقره إليه ويسأله الرأي في مهمات الأمور . وقد كان يؤثره على غيره من المؤذنين ، فلم يكن يؤذن لأحد الرجلين اللذين ندبا للأذان بعده أن يدعو إلى الصلاة وبلال قادر على الدعاء إليها .

• • •

ولزم بلال النبي عن كثب طوال حياته . فكان يوقظ النبي بعد الأذان أحياناً بآية من الآيات أو بكلمة من جوامع الحكمة والتقوى . فإذا اجتمع المصلون بالمسجد اتجهت الأنظار نحو الإفريقي الواقف بالصف الأول ليتلوه في حركات الصلاة ، فإن من واجب المؤذن بعد إعلان الأذان أن يصحب الإمام بالتكبير والدعاء كما يصنع الشماس مع الأسقف في الصلاة المسيحية .

ولما تعاظمت قوة الإسلام تعاظمت معه مكانة بلال وعهدت إليه

أمور أهم وأكبر من الأذان . فكان حازن بيت النبي وأمينه على المال الذى يصل إلى يديه . وتلقى من النبي مفاتيح الكعبة يوم دخل مكة في موكبه الظافر وكان هو الذى أقام الأذان على أعلى مكان في تلك البنية التى اشتهرت الآن في أنحاء الكرة الأرضية . وكان هو الداعى إلى الصلاة يوم حضر إلى المدينة ملوك حضرموت للدخول في الإسلام . وكان هو الذى يدعو إلى الصلاة حين يمتشد فرسان الإسلام بالصبحراء لقتال عابدى الأوثان .

وتروى عنه أخبار شتى بعد وقعة بدر وفتح خيبر تشف عن بغض شديد لأعداء وليه والمحسن إليه لاحتاجة بنا في هذا المقام إلى تفصيلها . وأجمل من هذا أن نذكر للأسود الأمين غيرته على شخص النبي يوم ذهب معه في حجة الوداع فظل يحرس على راحته طوال الطريق ويمشى إلى جانبه مظلاً إياه بستار في يده بحميه وهج الظهيرة ، ولعله في تلك الرحلة قد عبر في الوادى المقدس تلك الأماكن التى كان سادات قريش يعذبونه هوفى حر شمسها .

ثم توفى محمد « عليه السلام » فسكت الصوت العجيب ودعى مؤذنون آخرون لدعاء المسلمين إلى الصلاة . لأن بلالا عاهد نفسه ألا يؤذن لإمام بعد بيه ووليه .

ولا نعلم كم من الوقت قضاه بلال في صحبة أبى بكر بالمدينة . ولكنه ولارب كان في موضع الرعاية والكرامة بين المسلمين ، وكان له من جلال القدر في أنظارهم ماخوله أن يخطب امرأة عربية حرة لأخيه الأسود وهى رعاية عظمى بين قوم لا يزالون يفخرون بصحة النسب ويسمون أنفسهم بالأحرار أى الخلف من النسب الخليط .

ويؤخذ من بعض الأنباء أن بلالا قد تولى بعض مهام الدولة بعد الخليفة الأول . فلما أراد الخليفة العادل الصارم في عدله - عمر بن الخطاب - أن يحاسب « سيف الله » خالد بن الوليد على بعض أعماله كان بلال هو الذى نزع عمامة خالد وأوثق يديه أمام جماعة المسلمين بالمسجد وهو يردد مشيئة أمير المؤمنين .

ولكننا لانسمع بعد هذه القصة عن بلال إلا القليل ، حتى وصل عمر إلى الشام فنعلم أنه كان يصحب الجيش وأنه كان قد منع بجوار دمشق قطعة من الأرض واعتزل الحياة العامة كل الاعتزال . وكان معظم الصحابة قد فارقوا الدنيا ، ولحق أبو بكر وخالد بالنبي في رضوان ربه كما لحق به آخرون ممن جاهدوا معه في معارك الإسلام الأولى . ولم يكن الجيل الجديد على نمط الجيل الذى تقدمه في المعيشة ، فزالت أوكادت تزول من حياة العرب تلك البساطة البدوية التى درجت عليها ، وظهرت بينهم بدع من الترف الآسيوى لم تكن معهودة فيما مضى ، وتدفقت أموال فارس على المدينة كأنها سيل من الذهب حتى دمعت عينا الخليفة عمر وهو ينظر إليها ويخشى منها الفتنة والحسد على رعاياه .

وفى خلال ذلك كانت العقيدة التى تعذب بلال من أجلها ودان بها زمناً وهى لا تتجاوز حى أبى طالب - قد جاوزت البرور والبحار إلى سورية وفلسطين وفارس ، وشهدتها قبل أن يسلم روحه إلى ذلك الذى لا ينام وهى تسلك سبيلها إلى القارة الأفريقية فتضمها إلى فتوح الإسلام . وبهذا أصبحت دعوته الأولى - دعوة الأذان - مستجابة بين أقوام من المتعبدين من تخوم الهند إلى شواطئ الأطلس ، وقرع فرسان الصحراء

العربية أبواب كابل . . . ولعل ولداً من ذرية بلال قد عاش حتى رأى الدولة تمتد على بقاع الأرض مسيرة مائتي يوم بين المشرق والمغرب . وإن ما بلغته الفتوح الإسلامية - حتى في السنة الثانية عشرة للهجرة - لخليق أن يستجيش في صدر الشيخ الهرم حمية الدين التي عمر بها ما بين جانحيه .

° ° °

سكت صوت بلال عن ترديد الأذان بعد نبيه ووليه ، لأنه رأى في حسبانته التقى أن الصوت الذي أسمع نبي الله ودعاه إلى بيت الصلاة لا ينبغي أن يسمع بعد فراق مولاه . ولنا أن نتخيله في مأواه بالشام وأنه ليدعى مراراً إلى ترديد ذلك الدعاء الذي أعلنه لأول مرة تحت قبة السماء المضاءة بمصابيح الكواكب ، وإنه ليضطر مراراً إلى الإباء والاعتذار لأولئك الذين كانوا يجلبونه إجلال القديسين وبودهم لو بذلوا أموالهم كلها ليسمعوه .

إلا أنه لما ذهب عمر إلى دمشق توسل إليه رؤساء القوم أن يسأل بلالا إقامة الأذان تكريماً لمحضّر أمير المؤمنين ، فرضى بلال وكان أذانه الأخير .

° ° °

لقد كانت غيرة فتیان الدين الجديد في تلك الأيام غيرةً يوشك ألا تعرف الحدود ، ومن المحقق أن النبأ الذي سرى بينهم مبشراً باستماعهم إلى أذان بلال قد أذكى في نفوس أهل المدينة الوردية الشذى حميةً مفرحة لانظن أن العالم المسيحي قد شهد لها مثيلاً في غير أيام الصليبيين . فلما شاعت البشرية بين أبناء المدينة بسماع صوت المؤذن النبوي لاح للأكثرين ولاشك أن الظفر بسماع هذا الصوت غنيمة مقدسة تكاد أن

تضارع الظفر بسماع النبي عليه السلام . . . وأنها أفخر أحدىثة في الحياة تروى بعد السنين الطوال للأبناء والحفدة . وقد يكون في المدينة من تلقى النبأ بشعور لا يتجاوز التطلع والاستشراق ، ولكن الأكثرين الذين تراحموا في صمت وخشوع واجنى القلوب مرهني الأذان لسماع « التكبيرة » المعروفة قد خامرهم ولا ريب شعور أعمق وأقوى من أن يلم به النسيان . وتزكى روايات العيان هذا الاعتقاد ، لأننا نعلم من تلك الروايات أنهم بعد لحظة الانتظار في تلك اللحظة لم يلبثوا أن سمعوا رنة الصوت الجمهوري تشق حجاب السكون وتتعاقب من حنجرة الشيخ الأفريقي بتلك الكلمات المحبوبة الباقية حتى بكى عمرو من معه وتحدثت الدموع على وجوه أولئك الأبطال المجاهدين وارتفع لزفراتهم نشيج عال غطى في المسجد على دعاء الأذان الأخير .

أى فنان موسيقى أو دارس لتاريخ الموسيقى لا يود لو يسمع كيف كان صدى بلال في ذلك الأذان ، وأن يسمع الكلمات الخالدات كما كانت تسمع من أول المؤذنين ؟ !

ولاحاجة بنا إلى أن نقول إنها أمنية مستحيلة ، لأن فن النوبة أو تدوين الأنغام لم يكن معروفا يومئذ بين العرب ، ولم تكن لهم وسيلة لنقل الصوت من جيل إلى جيل غير تعليق الذاكرة ، فليس في وسعنا أن نجزم كل الجزم بما بقى أو بما تبدل من تلحين بلال للأذان . ولكننا نرجع إلى الظن وقد يغنى في هذا الباب . ولدينا من الأسباب ما يكفي لترجيح بقاء الأصوات نيفاً وألف سنة محفوظة في الذاكرة بغير تدوين ، ولعلنا نستطيع القول بأن بعضاً من النغمات العبرية بقيت بهذه الوسيلة من أيام سليمان ، وليست غير العرب على المآثورات الدينية بأقل من غير العبريين ، فلا جرم تسنح

لأنَّ نَغَامَ الأَذَانِ فرصة للبقاء في الذاكرة كالفرصة التي سنحت لأناسيد إسرائيل .

فن الجائز أن الأذان الحديث فيه على الأقل نغامت مشابهة للنغامت التي ابتداء بها بلال إذ كانت الكلمات نفسها باقية بغير تبديل ولعل مصر التي فتحت وبلال بقيد الحياة - مصر بلد الخلود الذي لا يقبل التبديل - قد جفظت دعوة الصلاة كما كانت ترتل في العشرة الثانية بعد الهجرة المحمدية . وقد سمعت الأذان من مؤذنين "معهه من بلال .

وبرضينا أن نعتقد أن بلالا نفسه قد أدى الأذان على نحو يشبه أداءه المسموع في مصر الحديثة كما سجله فيلوتو Villoteau وهو أنغام تذكر السامع برسوم العمارة العربية وتنقسم إلى أجزاء وأجزاء مما يقع موقع الغرابة في تأثيره على سامع الغربيين .

وقد كان المؤذن الذي معه فيلوتو أقرب إلى التفنن من المؤذن الذي سجل لين Lane نغامته في كتابه عن المصريين المحدثين فإذا بها تنتهي وفي السمع انتظار لبقية تالية . . . ولعلنا نؤثر أن يكون تلحين بلال من قبيل ذاك الأذان لما فيه من تجزئة النغم التي يألّفها العرب وتشبه تلك الخفايا المستغربة في الأصدااء الإفريقية . إلا أن النغم الآخر مع هذا يعبر على بساطته عن جمال ووقار ويوحى إلى معنى العبادة الخالدة التي لانهاية لها والتي هي أبداً في ابتداء بغير ختام . كما يوحى إلى صلاة معلقة تتصل بما بعدها ولو كانت هي آخر صلاة .

تعقيب

من الصفحات التي مرت بنا - مترجمة من الإنجليزية عن الكاتب الألمى لفكاديو هيرن - يتين للقارئ منزعه الأدبى فى الكتابة والتصوير . وهو على الأغلب مترع الخيال والمجاز والعطف على الحياة الشرقية التى تترج بتواريخ الروحيات والدينيات على الإجمال ، وهو مع تحقيقه فى مراجعة المصادر التى اعتمد عليها لم يخل من هفوة هنا أو هناك لابعيها سوء النية الذى تشف عنه أقوال الكثيرين من المستشرقين ، وإنما يوقعه فى الخطأ حب المجاز أو الاسترسال فى صقل موضوعه وتجميل صورته ، فلا يستغنى هذا المقال الممتع الذى حبي به ذكرى المؤذن الأول عن تعقيب نصصح فيه من مقاله ما يحتاج إلى التصحيح أو الاستدراك .

فن هفواته العرضية إشارته إلى عقب بلال رضى الله عنه وليس له عقب كما ورد فى ابن هشام نصاً ، وكما يفهم من السكوت عن ذكر بنين له أو بنات فى كل ماقرأناه عنه .

ومن هذه الهفوات العرضية اعتقاده أن أبا رويحة كان أخا لبلال من أبويه أو من أحدهما وهو على أرجح الأقوال أخوه فى الإسلام على سنة المؤاخاة التى كان النبى (صلوات الله عليه) يعقدها بين الصحابة من أنصار ومهاجرين .

غير أن هفوته الظاهرة هى مذهبه فى تعليل كثرة المغنين والمغنيات بين الموالى فى بلاد العرب وقتهم بين أبناء البلاد الأصلاء فإنه يجنح فى كلامه إلى تعليل هذه الكثرة بنقص فى الأداة الصوتية ، أو فى القدرة الفنية عند العربى الأصيل ، وأن الموالى والجوارى من السود والأحباش سلموا من هذا النقص فكثروا اشتغالهم بفن الغناء فى الحجاز ثم فى غيره من الأقطار الإسلامية .

وظاهر أن هذا التعليل بعيد من الصواب ، لأننا نسمع العرب اليوم في حديثهم وندائهم كما سُمعوا قبل الإسلام فلا نجدهم قاصرين في الجملة عن أداء صوت من الأصوات أو الارتفاع في جهازة الصوت وقوته إلى طبقة من الطبقات ، ولكنهم كانوا يعرضون عن صناعة الغناء لاعتقادهم في بداوتهم أنها صناعة أنثوية لاتليق بالفارس المقدام ولا بالرجل الكريم . وأن المنادمة والتسلية يجمال المسمع أو جمال المنظر أدنى إلى عمل النساء منها إلى عمل الرجال ، وكانوا أهل حرب أو تجارة فلا يحمدون من الرجل الكريم أن يشتغل بعمل غير القتال أو تسيير القوافل بين رحلتى الصيف والشتاء ، وكثيراً ما كان تسيير القوافل بالتجارة ضرباً آخر من ضروب القتال .

وتوارثوا هذا الاعتقاد إلى ما بعد أيام الدولة الإسلامية ، فكان الغناء مقصوراً على الموالى والجوارى أو على الخنثين الذين يتشبهون بالنساء في المظهر والكساء ، ولهذا كانوا يرسلون الشعر ويطلون الوجوه وعندهم أخذ الأوربيون هذه العادة وعمموها في أزياء أصحاب الفنون من موسيقيين ومصورين وممثلين ، وظل إرسال الشعر وطلاء الوجه شائعاً بينهم إلى زمن قريب . بعد أن نقلوه من الأندلس ونقله الأندلسيون عن أهل الصناعة في مدن الحجاز .

فكثرة المغنين بين الموالى والجوارى إنما ترجع إلى هذه العلة لا إلى عجز الأداة الصوتية في العرب الأصلاء ، وقد كانت لهم صناعة غناء لا ينكرونها وهى الحداء والنصيب وما إليه ، فكانوا يبلغون بها أقصى مدى الصوت الإنسانى فى العلو والقوة والامتداد ، وقد سمعناهم فى البادية مع

القمراء فكانت أصواتهم الجهيرة تملأ الصحراء . وهي في الغناء أعسر مكانٍ على امتلاء .

وصوت بلال رضى الله عنه لم يطلب مع سدا للآذان لأنه عرف قبل ذلك في أفانين الغناء ، ولعله رعى الإبل وحداها في بوادي الحجاز أو في الطريق بين الحجاز واليمن وبين الحجاز والشام ، ولم يذكر قط أنه اشتغل بغير هذا الضرب من الغناء قبل الإسلام أو بعد الإسلام ، وإنما عرفت جهازة صوته في الحرب والسلم وحدا الطريق فاختره النبي عليه السلام للآذان ، وكانت تقواه وغيرته على الصلاة والعبادة ولزوم المسجد من أسباب ذلك الاختيار .

فہرست

صفحة

[illegible]



رقم الايداع : ١٩٦٤

الترقيم الدولي : ٥ - ٢٣٩ - ٢٨٦ - ٩٧٧ - I.S.B.N